نضال القاضي

سيـــرة ظـــل

رواية

إلى أسماء . .

وأسماء آخرين

عام الدعسوقة

١

عين ماء وضربة ريشة خاطفة ، لطخة سوداء تمتدّ فوق رؤوسنا يسمّونها الليل ، العين محددة بباب خشبيّ ومجدولة حافاتها بأسلاك وطحالب ولاأدري من منهما بالضبط يسحل الآخر هي أم القمر؟ . . في الحقيقة رأسي مشغول بأشياء كثيرة ولم يكن ليعنيني ذلك . على مقربة غيضة انتصبت فيها عيدان من القصب يحفّها مسطح مائيّ صغير طفتْ فوقه مستعمرات من نبات السرخس ، وقد بدأ طريق ترابيّ يظهر تتواصل فيه أعمال حفْر وتجريف ، حيث بدت الكتل الترابية الجافة والهائلة المقتلعة من مكانها وكأنها تخلع عن طبقاتها المتراصّة سنوات قريبةً وبعيدة تُرِكتْ بِكْراً مكشوفة في العراء ، وسواء اختار تاريخ الأشياء أم لم يختر نهايته الحجرية الصمّاء هذه فإنّ طيفا من تلك السنوات يحوّم في المكان ، معه وبصوت خافت تقرع نواقيس التكهّن والتذكر والنسيان ، سمِعتْ أم لم تُسمع فإنها تجبر على التأمّل في غيابات وظلالها .

ثم أخذ الطريق الترابي يزداد وعورة فيتعكّر مزاج السائق ويضيق ذرعا وهو يبطىء في السير متذمّرا مغتاظا من سكوتي وأنا أراقب

التعرّجات تلطم إطارات السيارة ؛ فيتناثر الحصى الناعم والرمل من حولها ويتطاير قسم منه باتجاه زجاج النوافذ ، فأحسست بالحرج فعلا حتى إذا ما شارفنا على الوصول طلبت منه التوقف على الفور وإخراج أمتعتي من الحقيبة الخلفية لأحملها وأسير بمفردي ، غير أنّ بضع الخطوات التي ظننت لم تكن بضع خطوات فقد استغرقت وقتا أطول مما كنت أتوقع كي أبلغ عتبة المنزل .

وإذاً . . !هذا هو منزل السيد سطيفان عهدي سعيد الذي لم يكن سعيدا طوال العهود البتة . حقائبي الآن في البهو والحارس يجرّب المفاتيح ، كنت أريد أن أقول له اترك كلّ شيء على ما هو عليه واذهب ، فالمكان أخّاذ وأفضّل ان أتجوّل فيه بمفردي ، إنه تحفة فنيّة ولعلّ المكتبة أكثر ما لفت نظري ؛ إذ تمتدّ بمحاذاة الجدران وتتفرّع معها ، تنقطع عند ممرّطويل ينتهي بسلالم ومرآة لتظهر ثانية وهي تبطّن غرفة تنفتح على الحديقة بشرفة واسعة تؤلف سياجها مشربيات بيضاوات تتكىء إلى أعمدة رخام تستدير مع مثيلات لها في رواق طويل . في الجهة الأخرى غرفة استقبال واسعة تتوسّط الجدار المقابل منها لوحة زيتية لعبد القادر الرسام سوف أعثر عليها لاحقا في إحدى دور العرض ، واللوحةعن قوارب تجذف في دجلة ، وخلف أريكة من طقم فخم مذهّب ، في الزاوية القريبة منه أثر استدارة على الأرض لفازة كبيرة غادرت موقعها ، فيما وعلى بعد بضعة مربعات تقف ساعة كبيرة لها دقة بك بن ، وناقوس ذهبيّ يتدلّى داخل هيكل

خشبي جميل يقوم على أربع قوائم بزوائد مخلبية منحوتة بمهارة ، كان والد سطيفان قد اشتراها من مزاد ، لكن حين أيقظت في اليوم التالي الحيّ بأكمله أسكت ناقوسها الذهبيّ الجميل إلى الأبد ، ومذ ذاك وهي خرساء . هناك أيضا حاجز خشبيّ مضلّع من ستة ألواح بتيجان وزخارف يفصل غرفة الاستقبال عن غرفة الطعام ، التي تتوسّطها مائدة من الأبنوس بيضوية بساق واحدة متينة ثبتت عند المركز ، يبرز من فوقها عند المنتصف جدع شمعدان من البرونز بخمس ، فيما تطلّ على الحديقة ثلاثة شبابيك انسدلت عليها ستائر ساتان خضر مشعّة ، ترعش دفقة الهواء قبالتها أعناق زهرات كاردينيا بيضاء تفوح رائحتها النفاذة التي لا أحتملها ، فغادرتُ الغرفة وأنا أنقل بصري ببطء إلى الأعلى لأتأمّل أسلوب بناء القبّة وكان صادما بالفعل! . . فأن يرى المرء آثار أقدام بشر على الأرض أمر جدُّ طبيعي ، لكن أن يجدها على السقف والحيطان هذا ما لم أجد له تفسيرا في حينه ، ربما أراد صاحبها أن يضيف نفسه إلى الموجودات النفيسة ، يضيفها هي إليه . . . ربما يريد أن يبقى وحسب ! . وجدت أيضا أكداسا من الكتب على المناضد ، كتابان أو ثلاثة على الأريكة تنوّعت بين تاريخ وفلسفة وعلوم طبيعية ، فأحسست أنّ ثمّة أمرا ما يدور في خلد ما ، ولنفترض ذلك ، ما علاقة هذا كله بالمشي على السقوف والحيطان؟!

حملت حقائبي ودخلت الممرّ الطويل وعلى أحد جانبيه غرفة جلوس صيفية اكتست بالغبار وأوراق الأشجار ، وعلى الجانب الآخر

غرف نوم متشابهة خلا بعضها من الأثاث فاخترتُ أقربها إلى غرفة المكتبة ، وضعت الحقائب على الأرض وجلست على حافة السرير . عليّ أن أصفّي ذهني الآن ، قلت في نفسي ، سآخذ حمّاما ساخنا وفنجانا من القهوة وأرى فيما بعد من أين أبدأ .

القلم والأوراق على المكتب وأنا أذرع الغرفة كما هي عادتي جيئة وذهابا . في الفنجان أبصر عيني تترقرق والباب الخشبيّ يحرّكهُ الهواء فينفتح ببطء على عمود نور وحصاة هائلة ، نمتْ في تقعّر علويّ لها نبتة مستدقة الأوراق مبسوطة كالكفّ يقال لها مخالب القطّ ، ويدفع الباب في حركته ضوء القمر ، فالمسطح المائيّ فالكتل الطينيّة الجافة إلى الخلف ، أمّا في الممرّ فتبدو المرآة غير معنية بالمكان ، فالأجسام التي تقف أمامها تتلاشى صورها ، تظهر تدريجيا بعد حين وكأنها مصممة بحسابات زمنية دقيقة . ثمّة أيضا أصوات تصدر من غرفة في جهة ما ملحقة بالمنزل تقطنها عائلة الحارس وصوت حشرة تزحف ، دعسوقة تتسلق السلّم تنقبض وتنبسط لتدفع من مؤخرتها كيس بيوض بثناياه المرصوصة المحززة ، رحت أتأمّلهُ وهو يتدحرج إلى الوراء آخذاً معه حقبة كاملة على درجات ذلك السلّم / قرن تلك الثنايا المرصوصة المحززة تنبعث منه في غارةٍ أصواتٌ اختلطت ببعضها وجعلت تخفت مبتعدة ثمّ انقطعت حين غرس بوّابته مثل فكّ عظيم في الرمل وغرق . تذكّرت الصينيّين ودأبهم على تسمية أعوامهم بأسماء الحيوانات فثمة عام النمر ، عام التنين ، عام الثور . . عام

الدعسوقة مثلا! . . والحقبة تلك غرفة في التسعينيّات ، في ركن منها انطرحتْ سيّـدة مسنة على فـراش تقـرنصت حـافـاتهُ وقـد مُـدّ على الأرض ، في إحدى المرّات تركت تلاّ من الأوراق يتهاوى متناثرا كي ألحق بها وأحملها حملا إلى الحمّام ، آخر مرّة أعدتها فيها إلى فراشها وغطيتها بشرشف أزرق باهت واراها التراب إلى الأبد . ثم انتقلت إلى غرفة أخرى يسمّونها بيت الزوجية لم تكن أوسع من(ميّة) بيت كما غنّت فيروز ، خرجت منها بطفلين جميلين ، إلى ثالثة نمتْ وترعرعتْ فيها نباتات ظلّيّة .

وفي الطريق إلى مقرّ عملي تقابلني كل يوم غرفة من الصفيح كتب صاحبها على جدارها (هنا بيتي) وخطّ على بابها عبارة (وهذا باب رزقي) ، سيقتلعها بعد أعوام صاروخ في حرب أقلّ ما يقال عنها إنها غير متكافئة . هكذا انتشرت غرف فوق وغرف تحت حيث عاش عراقيون أعوامهم وأعوام النمر والثور والتنين والدعسوقة . في أوقات كثيرة لايعنون ما يقولون أو يفعلون ، فالقرار السليم في نظرهم هو الوجود بحدّ ذاته ، أما بقية الأمور فتترك لتُحلّ على مهل أو لاتُحلّ وعلى مهل أيضا . وتلك في حقيقة الأمر واحدة من ردود أفعال طبيعية بالنسبة لذات تعرّضت إلى السطو تاريخيّا وعلى مرّ العصور . فثمة وفي أزلهم الذي ظهر عند انحناءة ما قد تلامس إلهان ، ومن شقّ صغير بينهما خرج الاختلاف يعدو في البريّة . لم تكن التفاحة بذرة الصراع على أرضهم بل الذي ملكها!! . . تلك الحقيقة بولغ في

وصفها وتحليلها ، وتلاقفها مفكرون وهراطقة ، أنبياء وسحرة ، وابتدأت أوّل ما ابتدأت امرأة بين فحلين ضجّا بالرجولة فكانت الحرب بينهما قناعا أوّل . كان لابدّ من أقنعة كي يغتصب المغتصبون ويحارب المحاربون ويتلصّص الحرّاس وقطاع الطرق ، فلا يتنافر الوهم مع الفضيلة ولا الحقيقة مع الدنس ، الشجاعة مع العزلة والقناعة مع البؤس ، إلاّ أنّ ما لا يقبل الخطأ أنّ الإفصاح ما كان ليخصّ الذات تلك لوحدها ، ففرضيّة الأقنعة البديلة سارية المفعول كما أنّ المسافة بين الزمن داخل القناع وخارجه ليست بالقصيرة ، بل والأدهى من ذلك كلّه كم قناعا تحتاج أن تخلع حتى تتمكن من الوصول إلى نفسها في نهاية الممرّ؟ تبقى المرآة قناعا أخيرا قيد التكوين دائما للذي سيأتي . . سيعود . . ربّما . . ويموت .

ما زلت أطلّ على الممرّ من فرجة الباب وأنا أستدير ببطء ، تبهرني المكتبة وتصاميم رفوفها المتجاورة المتعاكسة بما يشبه السلالم ويالالأسف! قلت في نفسي . . حتما سينتهي العمر قبل أن أنهي قراءة كلّ هذه الكتب ، ولفتتْ نظري لفافة ورق ، مخطوطة ملفوفة تشبه كيس البيض ، بل إنّها هي كيس البيوض الذي سقط من الحشرة قبل قليل! ، تناولت الكيس برفق ورحت أفتحه بحذر وببطء ، تتكسّر حافاتهُ الرقيقة بين أصابعي لتأخذ مصيرها إلى جانب ما وجدتهُ من ممحيّات ومقطعات ، ثمّة أيضا رسوم وكتابة مقلوبة كما لو كانت قد نسخت عن مرآة ، وخطرت في بالي الفكرة ذاتها فأسرعت

بها إلى نهاية الممرّ قبالة المرآة تماما ، وطفقت أعرض الصفحات على الوجه تارة وتارة على القفا حتى تمكنت من قراءة بعض الكلمات ، ثمّ فقرات وفصولا بعد ذلك ، لم أشعر بالوقت لكنّ صداعا انتابني فانزلقت الورقة من يدي وأنا أسحل نفسي إلى السرير لأستغرق في النوم ، بتّ أتأمّلها في ذهني وأنا أغادر الفراش فيما بعد بكسل وحفيف الورقة يرتفع ، لكنّ إحساسي بالجوع قادني إلى المطبخ ، شغّلتُ جهاز التلفاز في طريقي لأستمع إلى نشرة الأخبار أو السيرة الذاتية للعالم ، والتي لم يتبدّل منها شيء منذ فجر الخليقة سوى الموضة ونوع السلاح وطريقة القتل ، فثمّة هوس في كل شيء . . في الحروب والمجاعات والأوبئة ، فشل على الطاولات الخاصّة والعامة ، كشف عن مقابر جماعية وحملات إبادة ما زال بعض منفّذيها حيّا طليقا ثمّ وجه جميل لفتاة . . فجأة تتدحرج قحفيّة هي كلّ ما تبقىّ منها أسفل شجرة تشعّثت جذورها اليابسة في الهواء ، صورة أطفال وأمّهم ظلّوا نائمين تحت الأنقاض ، وأبٌ يقفز كالمجنون على كومة الرمل والحجارة ، عبثا حاول أن يقنع أوربا وأميركا أنّ أيّاً من أبنائه لم يشترك في أحداث الحادي عشر من أيلول! ، ثمّ خبر سريع عن حاويات مغلقة تنقل مبعدين يموتون اختناقا في منتصف الطريق ، تهديد بضرب العراق ومقطع من برنامج محو التاريخ بدلا من محو الأميّة والجوع والمرض اسمهُ العولمة ، التي لا تكتفي بتغريب المال والنشاط الإنساني وحسب ، وإنّما تتعداهما إلى مفهوم الاغتراب

نفسه ، ثم حكاية موت طويلة في كلّ مكان اسمهُا فلسطين ، يظهر فيها الشارع والشارع العربي تحديدا فقيرا معدما محتجّا : لماذا وزارات الدفاع إذاً ؟ وعلام موازناتها الماليّة الضخمة والخيالية على مدى أربعين أو خمسين عاما من عمر القضيّة؟ صدّقونا نحن أذكياء . فقد عرفنا الأجابة دون مساعدة من أحد . عرفناها وحدنا منذ أكثر من نصف قرن وأكثر من نكبة .

الرغيف الذي يفترض أن يتحمّص في الفرن احترق ففصلتُ الوصلة الكهربائية وحملتُ ركوة القهوة ، ووجدتني أمشي بآليّة باتجاه الممرّ والحفيف يشتدّ . . يستدعيني حتى ألفيتني فوق المخطوطة تماما ، أطلّ عليها من كامل ما فيّ من ألم وشعور بلا عدالة العالم . تذكرتُ صديقا شاعرا قال لي مرّة معلّقا : تعبّرين عن الألم بطريقة مباشرة! . . واندهشت . . ترى هل المطلوب أن نتألّم عن طريق وسطاء؟!!

ثم جعلت أقلّب لفافة الورق ، وأفكاري وخواطري في بادىء الأمر تجول في مكان آخر راحت تتداعى مع تلك الفصول التي تصلني بعائلة سطيفان ، وبسلالات عاشت في أقاليم مختلفة تمتدّ على شكل كفّ نصف مضمومة تنفرج في موقع آخر مستدقة النهايات ، تشبه المخالب يتجه ما يمثل السبابّة فيها إلى تجاويف متصلبة متعضلة كأنّها أذرع متقابلة تخوض اشتباكات ، ينفضّ الاشتباك ويظهر العالم أكثرمن نصفه أحياء وأزقة شعبيّة أطفالها رثو الثياب يعلكون أصابعهم ، نصفه الآخر وجه تملؤه ندوب ، سحجات آثار طعن

بالسكاكين وصفّ من ملاقط سود لاعقة تهبط تدفعها الريح فيما شريط أسود يتقدّم قرية(*) ، يظهر الشريط من الجهة الأخرى يلفّها كعلب الهدايا ولا تظهر القرية ، فإن لم تكن هي من تمدّد قبالة النهر فمن تراه ذهب ليموت هناك في حرب الثمانية أعوام؟ . . ذات نهار حين امتلأ بالظلام مثل تلك النهارات التي قادتني في عمائها عيون فرضت عليّ رؤية ما تريد ، ما تريده هي وحسب لذا أغمضتُ عينيّ طويلا وفتحتهما على اتساعهما في داخلي وسافرت . سافرت أكثر من نصف عمري في أعماقي ، غالبا ماكنت أتوقف عند مقطع في الماضي البعيد وأظلّ أجوس في أروقته هربا من حاضر كريه أو بحثا عن نقطة اختبار لبداية ، دائما ، تصلني بزقاق ضيّق طويل حيث يقع بيت جدّي وتتهدّل من الجهتين شناشيل ، في ركن منه أتعرّف على بيت(عذاب) ولماذا (عذاب) . . لماذا هذا الاسم؟ لقد دأب الناس هناك على اختيار أسماء لأبنائهم مثل (زبالة) ، (بزونة) ، (طابوق) ، ظنّاً منهم أنّهم بذلك يطردون عين الحاسد عنهم فتلتصق تلك الأسماء بهم لتُعْرَفَ بيوتهم فيما بعد بها وتنتسى ألقابهم الحقيقية . في عمق جانبي من ذلك الركن شكّل زاوية بالقرب من باب خشب ثقيل كان يُفتح ويُغلق بمشقة ؛ لذا أهمل أصحابه أمر إغلاقه فتركوه مفتوحا إلى النصف تقريبا ، هناك وفي تلك الزاوية كنت أختبىء في

(*) إشارة إلى حلبجة .

لعبة الغمّيضة أيّام طفولتي ، قبالة الباب وفرجته الضيّقة تكشف عن امرأة تغسل كومة ملابس في صحن الدار . وفي النهار ذاته الذي كتلك النهارات التي قادتني في عمائها تلك العيون ، تسلّقت تلّة طينية أحدثتها تراكمات عديدة بفعل السنين ابتلعت الزاوية وغطت الباب ، حتى إنيّ حين تسلّقتُ التلّة لمستُ براحتي حافته العليا لأطلّ منها على مطموسة أثريّة ، ولم أجد الزاوية ولا المرأة التي تغسل كومة الملابس في صحن الدار . في الزقاق نفسه يقع بيت الحاج هادي قيل إنّه فتح باب بيته مرّة لامرأة قصيرة بدينة كانت تتسوّل ، فمدّ الرجل يده إلى جيبه ليخرج بضعة نقود معدنيّة وانشغل يقلّبها على راحته ، فلمّا رفع بصره لينالولها ما قسمه الله لها وجدها وقد صارت طويلة ونحيلة فشهق الرجل وسكت . وعلى مبعدة كان بيت الإنكليزية . . هكذا كان الناس يتغامزون فيما بينهم ويتهامسون ؛ فقد سافر رجل من ذلك الحيّ مرّة إلى إنكلترا سفرا مفاجئا وغريبا عاد منها بتلك الإنكليزية ضرّة لزوجته . لم تكن الضرّة جميلة ولا صغيرة في السنّ ، قال إنّها أمسكت به من ذراعه وقالت له :أتمنى أن ألبس ثوب الزفاف . فتأسّى الرجل لها وقال : البسي العباءة أوّلا ثمّ تعالي معي إلى العراق . وفعلا كان له ذلك ، لكنّ المسكينة وبعد أربعة أعوام قضتها غسّالة عجّانة خبّازة تخدم هذا وذاك عادت إلى بلادها وانقطعت أخبارها . وقيل فيما قيل أن عبرت مرّة عنزة سوداء جميلة نادت زوج الإنكليزية باسمه الصريح ، بينما كان مارّاً بالقرب

من(الطمّة) وهي أرض خربة مسيّجة بسياج طينيّ عال بمحاذاة الزقاق ، فالتبس الأمر على الرجل ولبث في دارهِ أيّاما لا يبرحها .

في هذا المكان عاشت أيضا قيسة ونهاية وكرامة . بالنسبة لي هنّ اختبارات وجود من حيث لم أكن قد ولدتُ بعد فالمخطوطة قذفت بي في خضمّ سيرة تجاوزت ماضيا أدركهُ ومقطعه المحاذي لذلك الزقاق الذي أعادني إلى طفولتي وحميميّة السلف هناك . والأمر يختلف قليلا فنقطة الإختبار هذه المرّة تتعدّى احتمالات انتشار بقعة الحبر على الورقة لأجدني أتحرّى في ذكرى حياة لم أعشها . أمّا موضوعة لا علاقة الأماكن بي قبل مجيئي إلى هذا العالم فبالإمكان الإلتفاف عليها ، فشجرة العائلة كما هو معلوم مؤسّسة ذكوريّة والذكْر من الذكر إلاّ قدر تعلق الأمر بالميراث ، وحتّى هذه القضيّة مقدور عليها ، فالمدينة التي قسمها النهر إلى قسمين الصوب الكبير والصوب الصغير ، كلّ عالمها كان سوقا سقف بقماش سميك دعّم بجذوع النخيل . وحين تطوّر رفعوا عنه القماش ومدّوا فوقه الصفيح . في ركن منه تقع ثلاثة أو أربعة دكاكين تنازع عليها الورثة ، مرّة بالعناق والقبلات ومرّة بالهراوات ، ثمّ قضى من قضى منهم نحبه وتفرّق آخرون ، وآلتْ الملكيّة من بعدهم على غير وجه حقّ إلى غرباء . أحدهم كان يدعى محفوظ صاحب الحقيبة ، حمل هذا حقيبته ، وضعها في الدكان وتربّع بالقرب منها وذلك يوم وهذا يوم . في الصباح كان يتجوّل بحقيبته لختن الصغار ، وفي المساء يبيّض وجوه

الكبار في ليالي الزفاف العامرة .

وفي عام الدعسوقة ورد في السجلاّت الرسميّة اسم زينادين . تقول الحكاية إنّ الملاقط السود التي هبطت من السماء رفعتها مع من رفعتهم من أهل تلك القرية . قريتها . وأبقتْ على حزمة من الشمس ذهبيّة مشعّة حول قحفيّة أسفل شجرة . صاحب الحقيبة ادّعى أنّها حملت سفاحا واختبأت إلى أن وافاها الأجل . أكّد ذلك وهو يرسم الدوائرحول الابن ويخطط أن يضع كلّ شيء في الحقيبة ، الدكان والمنزل وابن زينادين . في بيت العائلة أنكروا أمّ الولد ، قالوا إنّها لم تدخل بيتهم قطّ ولا كان لها بسليلهم البِكْر صلة ، ووسوست في صدورهم ذكرى شهدة أو شهدان أصغر أخوات الرحيمي الثلاث عشرة وقد حجرهنّ أخوهن في قصر منيف ، رافضا كلّ من تقدّم لطلب الزواج بواحدة منهن ، هكذا أشيع عنه والحقيقة ان ثمّة همهمة كانت تدور حول نسبهن! . . ففي ظهيرة شديدة البياض ساخنة ومشوّشة وقف الخزندار وعلى جانبيه السلحدار والمهردار وأيّ مصدر فعل يدرّ منفعة يخطر على البال ، كان واقفا ومعه أيضا حارساهُ وناظر أملاكه عصمت أفندي ، وكانت النسوة آنذاك يحبلن بمجرّد القول لذا كنّ محجّبات بطبقتين وثلاث وأربع من الحجب ، وكنّ أكثرهن لايبرحن بيوتهن ، غير أنّ الخزندار وحين وقف في تلك الظهيرة الشديدة البياض الساخنة والمشوّشة ليخطب خطبته الرنّانة ، والتي بلغت مسامعهن وهنّ غافلات ، ولم يكنّ بحسب أقوالهن يتنصّتن

من وراء الحجرات فحبلن! ، وفجأة احتشدت الأزقة بالأطفال حتىّ إنّ الرحيمي الفارسيّ الأصل ، وكان صغيرا آنذاك ، وجد أمّه وقد أنجبتْ تباعا الثلاث عشرة بنتا المخدّرات المحصّنات فيما بعد في القصر المنيف ، لايسمعن لغواً لذكَر ولا تقع أبصارهنّ عليه .

وفي تلك الصباحات البسيطة الصافية بساطة وصفاء الناس آنذاك ، الذين لم يلوّث أفكارهم ومعتقداتهم ما تناهى عن شيء اسمهُ ثورة صناعية ولا دخان حروبها فيما بعد ، وحين كان الرحيمي التقيّ السخيّ يمرّ في السوق متفقدا تجارته يسلّم على هذا ويقوم له ذاك ، ويلتفّ من حوله المستأجرون يعدونه خيراً أوّل الشهر ويشكرون له تعاطفه معهم ، كان الأخوان اليهوديّان شلومو وحنون يملكان عند أوّل عتبة في تفرّع ضيّق طويل تتداعى نهايته في مفترق يؤدّي إلى أزقة تتشعّب إلى أُخَر ، دكانا صغيرا إذا دخل أحدهما خرج الآخر ، وكانا يبيعان الصابون المعبّأ بصناديق خشب ، فإذا نفد منها الصابون باعا الخشب والمسامير كلاّ على حدة ، دون أن يسمع لهما صوت حتىّ بكى حنون ذات مرّة بصوت عالٍ فتنبّهَ الجيران إلى بكائه ، وذلك حين فقد شلومو إحدى عينيه وشلومو يهدّىء من روع أخيه : اهدأ ياحنون أخشى أن يؤذي البكاء عينيك أنت الآخر . . من سيرعى الأبناء عندئذ؟!

فيكفّ هذا عن البكاء ويوجّه بصرهُ صوب زوجته خيريّة التي لم تنجب له طوال عشرة أعوام طفلا واحدا ، فتلملم المرأة أطراف ثوبها

وتصعد إلى السطح لتكمل خبز الرقاق وهي تغمغم :

– لولا ضعف الحال وقلّة الرجال ما رضيت بك ياحنون .

فيستدير شلومو صوب زوجته سارة :

– أسكتي أختك ياساغة .

– ليكفّ أخوك عن مناكدتها ياشلومو أنت تعلم أنّ العيب منهُ .

– العيب منها .

– العيب منهُ .

– منها

– منهُ .

وكانت عروق رقبته تنتفخ ويتسارع نبضهُ كلما زعق وقد انكمش جفنهُ ، واستحالتْ عينهُ إلى شقّ أحمر صغير وغائر .

وحدث في تلك الأعوام أن توفيت والدة الرحيمي فدوّى صوت المقرىء في المسجد الذي توسّط السوق بآي الذكر الحكيم وتجمّع الناس يقدّمون التعازي ، ووصل الخزندار وقد رسم على وجهه إمارات التأثر ولم ينس كعادته كلما صادف الرحيمي سؤاله الأبويّ :

– كيف حال بناتنا؟

فيردّ هذا وهو يبلع ريقه لعلمه تماما بأنّ الرجل لا يقول غير الصدق ، فالبنات بناته قولا وفعلا والباطن لأوّل مرّة في حياته يطابق الظاهر!

–يبُسْنَ أيادي جنابكم .

والمرّة الوحيدة التي لم يسأله فيها عن أحوال البنات كانت عندما باع حلقة السمك التي يملكها إلى اليهوديين شلومو و حنون ، اللذين سرّبا الخبر بدورهما إلى الخزندار كي يخفف من أتاوة ذلك العام عليهما ، وفهم الرحيمي من لهجة التحية أنّه ارتكب خطأً فادحا ، وأنّ أمرا ما ينتظرهُ وما حدث مثير للريبة حقا ، فالرحيمي التقيّ السخيّ كانت له واحة على طريق مكة و مضيف ينزل فيه الحجاج كل سنة ، قيل قتله الوهابيون بعد بضعة أيام على يد عباس جاوة ، الذي كان يعمل لدى إحدى العوائل العريقة وهو ابن القرغيزية وصيفة البنات . وفي صبيحة اليوم التالي انتشر خبر مقتله وبلغ مسامع الخزندار فشوهد هذا في مكتبه متأرجحا على كرسيّه يردّد : مسكين رحيمي . . مسكين .

والحق يقال فالرجل لم يكن له ضلع في مقتله ، لكنه لم يكن ليتورّع عن القيام بعمل مماثل لولا أن اشترى غيره عباس جاوة وسبقه إليه . وهكذا ابتليت القرغيزية بمقتل سيّدها وباثنتي عشر بنتا وواحدة لم يعرف لها طريق . ربما فرّت قبل ذلك بكثير ولم يفتضح أمر فرارها . ربما لم تكن موجودة في الأصل ، لكن في القصر ثلاث عشرة حجرة أعدّتْ لهن ، وحول مائدة طعامهن ثلاثة عشر كرسيّاً وعليها ثلاثة عشر صحنا فضيّا وثلاث عشرة ملعقة ، كما أنّ الخيّاطات كنّ يجلبن كلّ سنة ثلاث عشرة كسوة صيفية ومثلها شتوية! .

وحين سألوا الشمردل دليل شمّر عن تلك التي رأوه معها في

المقبرة لم يجب ، بل إنّه أمضى أربعة عشر عاما في السجن وهو ساكت ، وبعد إطلاق سراحه بمدّة قصيرة مات . انفجر بطنه وهو يمشي . ظلّ ينتفخ بالأسرار . . ينتفخ . . ينتفخ حتىّ انفجر ودوّى في الأرجاء ، فتجمّعت أصناف الطيور بين بقبقة ونواح ونعيب ونعق وزعق على الخثارات المتبقية من الدم واللحم والأسرار ، وجعلت تلتقطها وهي تردّد وتزيد في الترديد . . ربما إلى الآن . . دون أن يفهم أحد ما يمكن أن تكون قد قالته أو تقوله تلك الطيور .

٢

. . وبين عامين اقتربا من بعضهما ، ليسا ككل الأعوام ، أحدهما عائد للقلّوخ كما ورد في كتاب الأتراك ، والآخر للسلك الكهربائي الذي انتفض بين أفخاذ النسوة ، كما ظهر في برج العذراء التي لم تفصح عيناها ، والعقرب وقد ظلّ متربا طوال العام كما هي عادة برجه في سبْر الأماكن متخفيّا بحثا عن أماكن للتخفيّ لها اسم ورسم بعلانيّة شجرة أو حجارة أوغلتْ في فكرة دارتْ ، ربّما ، أو أُهمِلتْ في جمجمة ووريتْ بالرمال وبليتْ . هي فسحة بين ميتتيْن حين يُخترَق الهمّ ويحكم الاختراق من طوقهِ عليه ، وتقع الأماكن في الخوف وفي إدمان حالة من الاستعداد للتعايش مع ما هو مقبول وغير مقبول ، في الظلّ لما هو بادٍ للعيان وما يرادفه كالزمن مثلا إذْ تحتفظ خزانته بالحقائق ويبقى عنصر الإيهام قائما في الحيّز المحيط المليء بالوقائع ، وفي فصل دقيق بين المظهر وآخر مُتخيّل بعنف وببطء حتىّ أقصى نقطة في الجسد ، ربّما ، لم تعد تنتمي إليه وقد انسحبت إلى خارج تجريبي كالتاريخ مثلا ، وفي موضع مقصيّ منه قبل اختراع الكتابة ودوران العجلة ، عندما فاضت عين الشمس مرّة لتُغرِقَ العالم متعرّجة

على سطحه وهي تكشف في فخاخ الخوف والألم أماكن للقوّة . والأماكن نسيانات تتراكم ، ومع الأيام تكوّنتْ (طمّة) . و(الطمّة) ، تلك الأرض الخربة ، لم تكن بحيطانها العالية وانتفاخها الطيني لترتبط بـ (أين) محدّدة بعينها أو بـ(هنا) معلومة ، إنّها لايحصى ولا يعدّ من هذه وتلك . فـ(أين) التي عرفناها لا تخصّها بل تخصّنا . . هي باختصار مطموراتنا نحن . كنا صغارا وفجأة ظهرت مثل طود قبالتنا ونحن نحبو ، بدونا كإضافة زائدة إلى كونها الذي وقفنا نتأمّله ذات مرّة في ركن من ذلك الزقاق وأصوات المارّة تقطعها ، ملايين الأصوات التي لا نجد لها حدّا مهما فتّشنا ، وكأنّ حبالا صوتيّة قد انفلتت تعزف فوقها ريح لانهائيّة . كم كان كونها شاسعا وكم بدونا وحيدين ، ورغم ذلك لم تهزمنا المخاوف من عالمها بل على العكس أحببنا تلك المخاوف والتصقنا بحيطانها ، من حيث سلك قديما درويش أخرس تناقلت الجدّات حكايته ، كان حاذقا في صرف الجنّ وصنع الرقى وعمل وصفات للمحبّة وأخرى للبغضاء ، تطليق الزوجة وتزويج الغريمة ، تتدلّى من عنقهِ قلائد خرز وكيس من القماش أسمر يحفظ فيه كتابا عتيقا . وغالبا ما كان يُمْضي قيلولتهُ على تخت في إحدى المقاهي ، فإذا انقلب إلى اليمين أو إلى الشمال انحرفت عن رأسه (جراويته) . هي ليست (جراوية) لأنه لم يكن بغداديا ولا هي كوفية ، لأنّ الكوفيّة عربية وملامحه لا تدلّ على ذلك . المهمّ أنّها غطاء رأس وحسب ، والأهمّ من ذلك ماذا تحت الغطاء؟ . . . جحافل

من القمل جرّتهُ مرّة إلى حمّام السوق فطرده (الحمّمجي) عندما رآى تلك العصابات تسفّ في رأسه ، ولولا أن تدخّل أهل المحلّة بقليل وكثير من(العيني والأغاتي والخطيّة والمروّة) ماكان ليدوس عتبة الحمّام في حياته . بقيت قصّة من أين جاء وكيف ومتى شغْل من لا شغل له من جلاّس المقاهي الذين راحت مخيّلتهم تضيف وتتفنّن في الإضافات ، وهي تستدعي أوّل ظهور له في المحلّة مذ شوهدت قدمان تتدليّان من على سياج الطمّة ظلّتا تتدلّيان وتتدلّيان حتّى بدأ باقي الجسم بالظهور عن رجل ضئيل التكوين بدا ضائعا بسرواله العريض وقميصه الطويل ، كان رأسه كبيرا بالنسبة إلى جسمه وبعينين غائرتين وشفتين رفيعتين وقد تدلّتْ من عنقه قلائد الخرز وكيس القماش الأسمر ، ومن جيب جانبيّ في سرواله برزت حافة(مداس) نسائي ، إلاّ أنّهُ وعلى الرغم من مرور أعوام طويلة على نزوله من الطمّة ؛ فقد ظلّتْ الطمّة محتفظة بانتفاخها الطينيّ النافر كحبلى تمدّدتْ للتوّ بانتظار أن تضع آخرَ .

لكرامة كلام آخر فما روتهُ عن ذات ظهيرة يعود إلى عام الكبش حين دخل بغداد محمّلا بالطاعون فاتكا بالآلاف من سكانها ، ذبحهم كالأكباش بادئا بمحلّة اليهود وشارع النهر آتياً على موظفي الدولة حتىّ لم يبق منهم من يسجّل للوفيّات . وبحسب رواية المبشر البريطاني (غريفز) «كانت مئات الجثث في الشوارع وأكثر المناظر إيلاما هم حملة الأكفان والسقائين ، صرر ملابس الموتى عند الأبواب

يتعثّر بها المئات من الأطفال وهم يتصارخون في الطرقات بعد أن ماتت أمّهاتهم وقد اختلط صراخهم بزمجرة الكلاب التي انبرتْ تنهش الجثث» . ماحدا بالوالي داوود باشا إلى إصدار مرسوم يمنع فيه دفن الجنائز القادمة من الحدود قبل مرور عام على الأقلّ على الوفاة . وفي تلك الظهيرة وقع مهرّب جنازات كان قد قدم مع ابن له من إيران بأيدي رجال الدرك وهو ينازع بين الموت والحياة فقد ظهرت عليه تأثيرات خلطة النورة والزرنيخ التي اعتاد أن يمسح بها الجثث ، بعد أن يكون قد قشط اللحم عنها بالحجر والسكين ثمّ ليتركها بعد ذاك مكشوفة للشمس والهواء فترة من الزمن حتىّ تتأكسد تماما فيرشّ عندئذ فوقها حفنة من تراب رطب قليلا ، فتبدو وكأنّ دهرا مضى عليها فنال منها البلى ما نال وليسهل عند ذاك استحصال رخصة لدفنها في وادي السلام بجوار الضريح الشريف . ومات مهرّب الجنازات وفرّ الابن ، راح يجوب الأماكن وقد نفد ما معه من مال وطعام وأشفقت عليه امرأة من(عفك) وآوتهُ ، ضمّتهُ إلى صبيان العشيرة وكان صبيّا آنذاك ، يقال إنّهُ كان يختبىء تحت عباءتها حين تمرّ فتدفعهُ بعيدا وهي تضحك ، أحيانا كان يُمضي وقتا طويلا مختبئاً تحت العباءة فيما هي تتلوّى متأوّهة . . هذا ما وشوشت به غريمتها آذان حشد من النسوة اندفعن في إحدى المرّات إلى حوش دارها أملا في ضبطهما ، لكنهنّ وجدنه منكبّا يحضّر وصفة فرُحْنَ يتحلّقن من حوله ، فيما هو يمرّ بظاهر كفّه خلسة على حلمة إحداهن متصنّعا البله

َ وحسن النيّة ، متتبّعا بنظره مواضع الإثارة في جسد أخرى وهو يناولها وصفة مجّانا ، وقد فعل مثل ذلك مع أخريات مغدقا عليهنّ بوصفاته فطرن من الفرح ونسين ما جئن من أجله ، بل صرْنَ يقصدنه ويجزلن له العطاء كلما حاصر الخراب أرواحهن فلا مناصّ عندئذ من مقايضته بالوهم مقابل ليرات ذهبية أو مداعبات بريئة!! ولا أشقّ على النفس من مواجهتها ولا أيسر من الوهم إلاّ اقتناؤه وقد علمت صاحبة الدار بأمر الصبيّ الذي كبر ونبتت لحيتهُ وصار درويشا تعارف الناس على تسميته بالأخرس ، تتدلّى من عنقه قلائد الخرز وكيس القماش الأسمر ، حيث حفظ أثرهُ وأثر أبيه الذي ظلّ الاستفهام محيطا به . فطلبت سيّدتهُ منه أن يصنع لها وصفة تقرّب زوجها منها وتبعد غريمتها بل تخفيها عن أنظاره ، وهنا هل كان فعله فعل السحر حقّا أم إنّ الصدف شاءت أن يلبّي الزوج دعوة آل المنتفك له فيذهب إلى الناصرية فيستقرّ هناك ، فيتزوّج من حضريّة ولتبقى المرأة وغريمتها واحدتهما قبالة الأخرى . فجنّ جنونها وطردتهُ شرّ طردة . يقال إنّها ركلته في صدره وهي تدفع به دفعا إلى الباب ، فمدّ يديه متعلّقا بساقها فيما انزلقت كفّاهُ لتمسك بمداسها وليظلّ حتىّ أواخر أيامه محتفظا به ، وقد أصبحت تلك المرأة بعيدة جدّا قبل أكثرمن مائة وصفة كان قد ابتكرها وأتقن صنعها .

٣

بالطبع ما من أحد فكر يوما بقتل الأخرس ولا الموت نفسه ، رغم ذلك ظلّ وجهه ممتقعا طيلة ذلك النهار ومطعونا بالزرقة ، تفوح منه رائحة الموت ، يكاد المرء يشمّها شمّا من ملابسه وجلده المتيبّس . وعلى أيّة حال لم يكن قد مات بعد وما أحسّ به يدنو منه لم يكن الموت بل شيء آخر يشبهه ، والأصحّ ينوب عنه ، يضاهيه تماما ، لذا جعل يتقلب تلك الظهيرة على التخت في المقهى حتىّ استسلم بعد جهد إلى النوم وراحت طاقيّته ترتعش تحت شخيره ، ترتفع وتنحفض ثمّ لتنسرح جانبا أسفل ذراعه المطويّة . وكان قد ساد اعتقاد بين الناس أنّ رجلا يدعى سعيد قد صاحب ظلّه ، بل إنّه يرسله أحيانا في مهمّات إلى أماكن بعيدة ، وكانوا يحيطونه بهالة هي مزيج من الرهبة والاحترام ، فهو بطل الزورخانة ومناقبه في الكرم والشجاعة مشهودة ، ولطالما تندّر منافسوه وتمادوا غيرة وحسدا ، فراحوا يعلنون أمام الملأ أنّ ظلّه طاعن في السنّ لايقوى على حمل عصا ، بينما ظلالهم يافعة وتماثلهم في كلّ شيء . فإذا بلغت تلك الأقاويل مسامعه احمرّت وجنتاه واتقدّتْ عيناه غضبا من هكذا تصوّر يحطّ من شأن رفيقه

وصديق عمره الشمردل ، الذي لم يكن ليعبأ بما يقال ، بل غالبا ماكان ينتزع صاحبه من ذراعه مطالبا إيّاه بأن يوفر غضبه لشأن أكثر أهمية ، وذكّـرهُ بالأخـرس الذي راح يجني مـالا لبـداً بالضـحك على ذوي العقول القاصرة واستغلالهم ، فردّ سعيد :

– وما عساي أفعل؟ ألا ترى النسوة يقفن على بابه أفواجا .

فقال الشمردل بهدوء :

– خذ روحه!

– مـاذا؟هل قـالوا لك إنّي عـزرائيل؟بالله عليك قل خـيـرا أو فلتصمت .

– الكتاب روح الأخرس . خذ الكتاب!

فالتفت سعيد نحو صاحبه وقد راقته الفكرة وبرقت عيناه بفرحة خبيئة ، فلطالما رغب في معرفة سرّ ذلك الكتاب وهزّ رأسه موافقا وهو يمرّ بسبّابته على ذقنه الحليقة ، متسائلا كيف لم تخطر في باله تلك الفكرة من قبل ، وبالفعل قرّر انتزاع الكتاب وخطط ونفّذ وفشل ، ثمّ أعاد الكرّة ولكن هذه المرّة بمقص فحمل مقصّا وقطع خيط الكيس خلسة ، فيما كان ذاك يقضي كعادته قيلولته نائما على التخت ، وحين استيقظ كان الذي صاحب ظلّه قد سرق الكيس للتوّ وفرّ مسرعا ، فقفز هذا متلفتا مذعورا وجعل يركض وراءه . الدرويش يركض والذي صـاحب ظلّه يركض . . . . يدخل أزقـة لا على التعيين ويخرج من أخرى حتّى ضيّع عليه أثره ، عند ذاك توجّه إلى

المقبرة حيث لاعين ترى ولا أذن تسمع . . هناك جلس كعادته ينتظر ظلّه ، وعندما اجتمع الاثنان وجلسا بالقرب من بعضهما لوّح الرجل لظلّه بالكتاب :

- أنظر!

فقفز هذا يتناول الكتاب وطفق يقلبه

- هه . . ما رأيك؟

الظل ساكت يقلّب ببطء محدّقا في الصفحات

- صوت . ارفع الصوت (ضاحكا) وأعقب : من يشاهدك يقول إنك تقرأ وتكتب فعلا!

وسحب الكتاب منه وقد طارت عدّة صفحات ، فلحق يجمعها وعيناه لا تفارقان ما هو مكتوب ، فصاح مندهشا :

- هذا فصل للحشرات وذا للحيوانات السريعة الجري وهذه شحمة خنزير . . انظر ماذا يفعل هذا الوغد! إنّه يمسح بها عتبة باب المرأة فيهجرها زوجها ! وفي هذه الصفحة سهم (والمقصود به سهم كيوبيد) انظر كيف يعدّهُ : أوان قطاف الزهر وقطرة من حليب ثدي والدة بكر ، وجرّة من طين المكان لم تمش عليه قدمان و . . . . هل تصدّق أنّه يجمع تلك المقادير الغريبة والعجيبة كلها لصنع وصفة؟ وقلب الصفحة فوجد صورة امرأة حبلى تأكل الخسّ والقرنابيط فتنجب بنتا ، المرأة نفسها في موضع آخر وهي تغتسل بالخلّ قبل الجماع فتحبل بذكر .

– أعـرف الخسّ والقـرنابيط والخلّ لكن مـاهو الجـمـاع ؟سـأل الشمردل .

– اسمع اسمع . . ، وتوقف عند صفحة أخرى مذهولا والتفت ناحـيـة صـاحـبـه : يسـمّـيـهـا وصـفـة الوصـفـات . . يقـول إنّهـا تفـيـد التـخـفيّ!! . . مـا رأيك هل نجـرّبهـا؟ ثمّ طفـقـا يقلبـان الصـفـحـات ويتـجـادلان فـيـمـا كـان الدرويش الأخـرس هائمـا على وجـهـه ، وظلّ كذلك أياما وأسابيع يذرع الدروب مطلقا صيحات ومحرّكا يديه في الهواء ، مستغيثا بإشارات لم يفهمها أحد ، وهو يقصّ شعره نتفا نتفا بالمقص الذي تركـه سـعـيـد عنده ، ومـازال على تلك الحـال والنـاس يواسونه ويجلبون له الأطعمة والملابس فيرميها وهو يزعق كالمسعور ، وكلما دخل زقاقا أطلّت النسوة من الأبواب والشبابيك وهنّ يضربن كـفّـا بكفّ : لاحـول ولا قـوّة إلاّ بالله ، يكسـر قلب الظالم . . تمتـمت إحـداهن ، ثمّ ارتكن إلى زاوية في زقـاق ، وجـعل ينحب بفـتـور تارة وتارة يهدأ مستغرقا في الصمت حتّى غفا فحمله صبيّهُ على ظهره إلى المنزل وجـعل هذا لا يبـرحـه ، قـيل إنّ المقصّ علّمـه الحـلاقـة ، فـعلّمـهـا بدوره للصبيّ الذي أتقن تحضير بعض الوصفـات السحـريّة والعقاقير ومداواة الجروح ، وختان الأطفال ، وحين كبر استبدل كيس معلّمه بحقيبة وصار يلبس بنطالا ويضع ربطة عنق وينادونه بصاحب الحقيبة . والرجل وظلّه يتخفيان في البرية مدججين بغدارات ومدي انتظمت حول خصريهما ، حين يعوي ذئب يمشيان بمواجهة العواء ،

حتىّ إذا لاحت الجادّة القصيرة وجدا كلّ شيء مرتبّا . . المقهى والناس والعربات التي تجرّها البغال ، وثمّة الهدوء المحروس بقلق اعتاد أن يتلقى في كلّ مرّة لكمات قويّة دون أن يفصح ، أحيانا يعوي أحدهما أجمل من ذئب فيما يسير الآخر مزهوا ، وفجأة تُحلّق قربة ماء عاليا ثمّ تسقط فيقفز الاثنان الرجل وظلّه ، ينحنيان متلاصقين من فوقها ثم يتمددان وتنفرج قامتاهما متقلبين ومتعلقين بفمها الذي يستطيل قليلا ، فيما يتهدّل جسمها مثل ثدي ممتلىء وطافح . وبخطى متثاقلة يجرفان الرمل ومدينة منحنياته المسمومة تتحاصر مخلوقاتها بالغبار المتصل بالشمس ، حتى ليصعب تحديد خطّ السماء منها ، غير أنّ ما لا يقبل الخطأ أنّ قدميهما على الأرض ورأسيهما إلى الأعلى ؛ فإذا التفت أحدهما ضاعت منه الجهات الأخرى . ويتقدّمان حذرين في شعاب امتلأت بالأفخاخ التي تركت على حالها رغم انتفاء الحاجة اليها . هناك اختفى ظلّه . ضاع منه وهو يمشي . . عندما حرّك رأسه ببطء إلى موضع الظلّ وجد طاقيته التي كان يعتمرها موضوعة حيث كان يقف وسط ارتعاشة عنيفة في الرمل راح يبتلعها الرمل . لم تكن المرّة الأولى التي يغطس فيها ظلّه أسبوعا وأسبوعين وثلاثة ليترك صاحبه مضطربا محتارا ، يضرب أخماسا وأسداسا ، حتّى إذا ظهر له وعلى شفتيه نصف ابتسامة من زاوية فمه قرّعهُ هذا أشدّ التقريع تصل حدّ اللكمات أحيانا . وحيث إنّه قد تعوّد مطاردة العسس له فقد تفنّن في أسلوب التملص منهم فلا تصلهم غير

قهقهاته حين يركض منفصلا عن قامتهِ ، هي باتجاه وهو في الاتجاه الآخر . لكنّ الأمر اختلف هذه المرّة . . . إنّه يتداعى! . . . فالزمان غير الزمان ، والمكان غير المكان وذا عام ١٨٣٧ وذي فلول (خارزان)(*) تجتاز ديار بكر هربا من جيوش رشيد باشا ، لتنتشر في العمادية شرقا والموصل وسنجار غربا وقد طال بقاؤه في الوعر الثلجي يفرك الثلج براحتيه بحثا عن الدفء أو ليظلّ حيّا على الأقلّ ، يغرف غرفة أخرى فتظهر كومة عظام لبغال وأطفال ونساء دفنوا في المهلك ذاك ، حين ركض المئات منهم صوب سهل العراق وقد تركت آثار أقدامهم خطاً داكنا في التربة ، راح يناول الليل للنهار والنهار لليل ، ثم يمتثلان كوحشين ينهش يمين أحدهما شمال الآخر أو يستديران مبتعدين ، فيستعيد الرجل وعيه قليلا ليعدّهما أياما ولياليَ ، كم مرّة قال له لا تغادر الفرات . لا تذهب إلى (أورفة) فظهور شمّر تغادرها في الشتاء ، لم يصغ بل أصغى ولكن لنداءات خفيّة لم يسمعها أحد سواه . فهل كانت تلك خيول مطارديه حقا؟ أم إنّها أشباحها راحت تلكز كرات الثلج ، والعظام والظلال المدفونة تحت الأرض وتلك الراقدة المتصلبة دون حراك أو بحراك فوق الأرض ، لتطلّ عليه بكامل جلبتها :

– أين قامتك؟سألته وجوه نزقة راحت تقترب من وجهه متدافعة بعنف ، بقي ساكتا .

– أين اختفت؟ ونهزوه بالعصي ، ثم أعقبوا :

والمرأة التي كانت معك في المقبرة! من هي؟ ماذا تكون لك؟

والرجل ساكت ، قالوا عنه قاطع طريق وخاطف نساء وأنّه . . وأنّه ، وفكاهُ مطبقان يطقطقان من البرد ومن الجوع ؛ وقد اكتفى بإشارات واهنة لم تلتقطها حتىّ أطراف أصابعه . غير أنّ تلك الواقعة ، والتي لم تقع كانت قد سممّت بالفعل بلعوم الخزندار آنذاك ؛ فبسط يده لمخبريه كي يتعقبوا أثر الثالثة عشرة من البنات ، صغراهن وأحلاهن دون جدوى . فارتأى بعد خيبة طويلة أن يعدّها زواجا سرّيا ضدّ الباب العالي ، ورفع مذكرته إلى فوق على متن لوح حديدي ثقيل ثبّت بالبراغي وعلّق بحبال من القنّب ، وظلّ كذلك أعواما وأعواما مات خلالها الخزندار وشبع موتا ، واللوح كما هو معلق حتىّ أحضر الشمردل فجعلوا ينزلونه به في جوف صخريّ أغلق عليه أربعة عشر عاما بمشبّك معدنيّ احتلّ موضعه عند السقف . فيما وفي سنجار وفي بيت له ممشى طويل ، انعطف عند منتصفه نحو جناحين أحدهما للحريم والآخر للذكور ، وفي غرفة واسعة أعدّتْ للضيوف نزلت القامة محمومة ، فألقى عليها عجوز كردي شارف الثمانين أو التسعين عاما دثارا ثقيلا . كان العجوز قويّ البنية وله حدبة صغيرة تبدو في نومه مثل رأس آخر يندسّ إلى جواره في الفراش ترتفع وتنخفض في أنفاسه . تشخر معه ، ربّما ، وربّما تحلم أيضا! ، وقد جعل ينقع لبّادة في الماء البارد ويضعها على جبين الضيف ، ثم دفع اليه بإناء ملأهُ حليبا ساخنا مع خبز رقاق حلو بعض الشيء . وفي اليوم التالي بدأ سعيد يتعافى وصارت تطيب له صحبة ذلك العجوز

الذي يسرّهُ كثيرا استدعاء ماضيه الطويل الحافل بالقتال والفقدان والتشرّد خلال المواجهات المحتدمة مع الباشوات وما بقي له من العمر ، قال ، فإنّه يحتفظ به لرعاية حفيداته الثلاث ، كبراهن كانت زينادين التي أخذت عن جدّتها عادة وضع يدها أسفل أنفه ، تحت مجرى النفس تماما وهو نائم ، وحين تشعر بنفَسِهِ يجري طبيعيّا على راحتها تتأكد أنّه مازال حيّا فتطمئن وتسحبها مثل طائر يحلق وطيئا . ثم ضحك وهو يرفع رأسه صوب جمّيزة قريبة مشيرا إليها ، فلا يتبيّنها فالماء الأبيض قد وصل أخيرا إلى عينيه ، وهناك حيث أدرك الموضع أم لم يدركه ، دفن تلك المرأ ة الطويلة القويّة زوجتهُ ، كان يتكلم بدفء وحاجة بادية إليها ، وسعيد ينصت مصدّقا قلب الرجل .

(*) قبيلة كردية هاجرت من تركيا لدى مواجهاتها مع جيوش الباشا قبيل عام ١٨٣٧ .

٤

أوقات ليست ككلّ الأوقات في يوم أربعاء مائل إلى الصفرة هاجت وماجت فيه الطيور ، وبدأت الزواحف والحشرات تتحشد باتجاه أوكارها في حساسيّة مع تلك الأربعاءات القليلة الدانية ، وقد جعلت تصيب بالحكة والهرش فتنفض ما عليها من أوراق ومعارك في اقتراب تشريني يشبه موت الشمردل ، في الأوقات ذاتها التي تسبق الحروب وتتشبّه بموته ، وقد تمدّد القلّوخ وتشعّب حثيثا بالقرب من عام ١٩٠٩ ؛ فسياسة التتريك تهدد القوميات غير التركية وتجبرها على الهجرة والسلطان يرفس رفسته الأخيرة قبل أن يتنحىّ عن الحكم ، فترتفع الأسعار ويعوي الفقر في البيوت ، وكان قسط من تلك الرفسة من نصيب العراق إذ ضيّق عليه وعلى أهله ، ففرضت الأتاوات ولاحق حرس (السفربرلك) الناس وانتزعوا منهم أبناءهم الصغار والكبار ، وصاحت الصائحة وناحت النائحة ، وتقول كرامة :

إنّ امرأة في أحد الأرياف حفرت في الأرض شقا طوليّا يشبه القبر وجعلت ترضع طفلها فيه ؛ وقد سحبت من فوقها غطاء خشبيا رصّت عليه طبقة من الطين . ويبدو أنّ فكرة القبور لم تخامر تلك المرأة

وحسب وإنّما انتشرت لتصبح شائعة تمارس لا تُحكى في أرجاء الإمبراطوريّة . فما كان من سعيد إلاّ أن جمع نساءه وبناته وأخواته ونساء إخوته وركب بهن ليلة باردة إلى أرض منقطع بالقرب من الدغارة اليوم ، هناك وفي مغارة طينية ترك مؤنا وماء ما يكفي لأربعين يوما ، وقال لهن : إن نجوت سآتي لأصطحبكن وإن متّ فسيأتي من ينوب عني ، ثم بنى عليهن المغارة إلاّ مما يمكنهن من التنفس ، واستجابت الطبيعة لتلك الفواجع فنمت المغارات وكثرت التلول ، صارت تحاكي بسفوحها وقممها الصغيرة أثداء الأمهات المنتفخة وحلماتهن الفاغرة في الدروب ذاتها ، اللاتي قطعنها منذ مئات السنين من حيث سارت الإمبراطورية إلى نهايتها المحتومة ، فيما راحت شركة الهند الشرقية تعزز وجودها في الخليج وتنشر سفنها الحربية والتجارية لتأمين الحماية الكاملة لآبار شركة النفط الإنكليزية الفارسية ؛ وقد شارف العام ١٩١٣ على الانتهاء وتركيا الخاسرة في البلقان ضعيفة مهزومة متضعضعة تتوسّل رضا ألمانيا ؛ وقد بلغ التوتر أشدّهُ في أوربا وقسمها إلى معسكرين باتت الحرب بينهما أمرا واقعا . وكان الأسطول النهري البريطاني مسيطرا على شط العرب ؛ وقد سدّت إحدى بواخره في الكارون الطريق على (مرمريس) الباخرة التركية اليتيمة ، وأغرقتها بعد مطاردة استغرقت ليلة كاملة جرفت فيها نيران المدافع الضفة اليمنى للنهر ، وغابة من البشر التفت فيها أعوام الطاعون والجدري والكوليرا والملاريا والتيفوس والزوابع الرملية

والفيضانات . كانت القذائف تبقر بطن الهور وتترك القصب الدائر من حوله مشتعلا أياما وليالِيَ تلألأت طويلا في النار المحمولة على المشاحيف .

[. . تلك الغابات عبرتِها . كان الرصاص يئزّ حول شبحكِ المتنقل بخفة بين الأكوام المشتعلة من جذوع النخل والممدّدة مع الأفق . . كم مرّة كدتِ تسقطين يا كرامة متعثرة بالجثث وبالجذوع! ، وعلى الأفق أيضا اصطفت الكلاب جماعات في رواح ومجيء دائبين ؛ كأنّ أحدا رتّب حضورها هناك صامتة متخمة بوجبات غير متوقعة ، مركزة بمقاطع بشريّة ومواشٍ منتفخة وقد سرْتِ عكس خط تقدّم القوّات ، إلى الغرب منها قليلا لتتفادي اشتباكات احتدمت عند معابر الطرق ، ومع مجرى النهر تحت صفير ريح حملت معها المطرات الفارغة ، الخوذ ، والجزم العسكرية المهترئة ، فيما ارتفعت فجأة أعمدة من الوحل ما لبثت أن تحطّمت وانتثرت في الهواء ، فانبطحتِ على الأرض وصار بوسعك من فوق الأجراف المتقوّرة للنهر رؤية القرية وهي تهرع خلف شجرة مختنقة بسعالها . هناك ظلّ هؤلاء وهؤلاء ووراءك تظهر الحياة بقدر ما تفرض الحقائق البسيطة وجودها ضدّ الموت ، سهلة ضدّ موت سهل ، وأقلّ كلفة ، حين يتحوّل الوطن إلى أسلاب وغنائم حرب . لم يدم الحياد طويلا فقد كان صوت الطلقات يسمع في الشارع المحاذي للنهر وحول السراي ليل نهار ، ثم سقطت طائرة فقهقهت العشيرة ، وخرج الأبناء يطاردون الكتيبة التي فرّت

خلف قائدها المنهزم إلى النهر . ركضوا في النهر وغرق نصفهم ، أكثر من نصفهم حين استدارت باخرة بل باخرتان لتغطيانهم بالقنابل ولتشقا بعد ذلك الطريق بصعوبة بالغة مرتطمتين بالجثث وبجذوع الأشجار المتهالكة فوق الماء . ثم بدأ يتهدّل عليك الليل وعند قدميك تلوّت حبال من الطين رصّت ببعضها مؤلفة سدودا راحت تطلق في المياه صورة مشوشة للقمر ، متآكلة ومرتبكة ، وهو ينخفض ببطء ليمسّ عنق النهر الملتفّ حول أجمة أحدثت سوْرة عنيفة . ويمتدّ جذعك فتجلجل فقرات ظهرك مثل تلك الأجراس التي راحت تقرع في كل المدن والقرى من الجنوب إلى الشمال ، وتروح الطائرات تلقي بقنابلها إذ يرتفع لهاثك حينا وحينا يخفت ، . . فمنذ متى وأنت تقطنين الأودية تلك كقبضة من الطين مجففة؟

هي ذي البواخر غاطسة في الوحل والسقاؤون خلف أسوار المدن ، يقطر الفرات من بين أصابعهم عطشا وتعبا ، وآب يتسلق الهجير اللافح ، تدفع ركبتاه بشهور عامك العشرين وعامك المئة ، لقد تخطيتِ المائة . . بكم سنة؟كم حربا وأنت تغسلين عتبة الباب وراء (الطارش) الذي يذهب إلى سِكَر(*) ولا يرجع في ريح غبرة ودرب عثرة . . ؟ شيخ الضواري(**) ذهب إلى نصيبين وشريف مكة توقف عند شرق الأردن ، ومن ضيّع دابته ركب أخيرا مع الإنكليز ، وحزّت

(*) (عبد الواحد سكر والشيخ ضاري) قادة ثورة العشرين .

الحبال معاصم وأعناق أربعة عشر ألف أسير من العرب والكرد والأرمن والآثوريين والأتراك واليهود ، تلكزهم أعقاب البنادق فيسرعون في الصعود إلى ظهر السفينة التي ستقلهم إلى منفاهم في سمربور ، أحد الأرمن فقد عائلته وعقله في معسكر في بعقوبة ضمّ عشرة آلاف أرمني رحّلوا من تركيا ، وأربعين ألف آثوري هُجِّروا من قراهم ووقعوا جميعهم ضحيّة القصف المتبادل ، فهلك منهم من هلك وجرح كثيرون . . كان الرجل يغفو فتهتزّ تحت جسده الثقيل عارضة خشبية ، وإذ ينشج بقوة ويتبوّل دون أن يشعر تختنق القاعة بالحرارة وبرائحة البول ، فيحتجّ السجناء ولا تفارق الشتائم ألسنتهم . ويتقلب هذا على العارضة دون أن يفهم أو يسمع شيئا مما يجري من حوله . . ربّما تذكر في حلمه القطن الذي تركه في الجومة دون حلج ، سيأتي التاجر الحلبي حتما ليسأل عنه! . . ثم نهض سائرا في نومه ، هو الذي لم يزر القسطنطينية يوما ولا يدري من أين تحدّ بريطانيا العظمى مدينة (وان) التي قدم منها! غير أنّ ثمة مدوّنات على صخرة كبيرة نُقشت بكتابة مسمارية لم يكن ينتبه إليها وهو يتسلق حتىّ موضع يقال له مهبط المسيح ، وحيث أن لا طريق إلى الصخرة إلاّ من جزئها المثلوم ، فقد تسلق جزءها المثلوم دون أن يسقط أرضا بين صفوف الحروف الرأسية السهام المفصولة عن بعضها والموقعة باسم شميرام ملكة آشور أو سميراميس التي ينسب إليها بناء المدينة تلك ، وحتىّ النهاية المفاجئة للصخرة ومن جانبها المنحدر جعل يدور ببطء ، إذ تبرز المدوّنات

الرأسيّة السهام في حفرتين مقوّستين خلف الصومعة ناحية كهف غير عميق وضعت فيه ثلاثة ألواح طينية مربّعة الشكل اثنان منها بديا ورديين كما لو أنّ دما هادئا يمرّ من تحتهما ، والثالث شُوّه تماما من حيث يظهر جزء سور قديم هو المدخل الوحيد لقلعة قيل إنّ تيمورلنك عجز عن هدمه حين احتلها . وحيث أن لا بوابة ولا حرس عند المدخل ، واصل الأرمنيّ صعوده متسلقا مرتفعا شديد الانحدار ، وعند حائطين مزدوجين تعلو أحدهما أبراج تآكلت الشمس على حجارتها المفخورة ، وقد استدار ليتأمّل البحيرة حيث تحوّم طيور الغاق والقطرس بين زرقتين صافيتين تتنفسّان ببطء لم يكن يدري وهو يرفع رأسه إلى الأعلى أيّهما كانت السماء؟! التي فوق أم التي تحت؟! وجعل يحوّم مع الطيور مبللا يقطر من وسطه إلى الأسفل منحنيا على أحد الأسرى ، وكان نائما ليقطع مذاكيرهُ بالموسى! ، ثم عاد ليتسلق الصخرة والسطور الرأسية السهام المحفورة بالفأس ، لا يدري أية مسامير يفكّ؟ تلك التي في الصليب أم التي دقت نعوش عائلته . . ؟ أم لعلها مسامير ملكة الدنيا القديمة شميرام؟ . . واستمرّ يزحف حتىّ سهل صخريّ طباشيري راح يتمدّد عليه ، فيما اختلطت عليه اللكمات بالصراخ بالدم بالبول بالقسطنطينية ببريطانيا العظمى بالمسامير بالقطن بالأنين ، الذي سكت بعد يومين وأسكت معه ذلك المسكين إلى الأبد .

والآن . . بوسعي أن أخمّن من كنتِ تنتظرين ، أيّتها السيّدة

الجليلة ، سنوات ، تارة في القيظ الشديد وتارة مبلولة متصلبة من البرد ، الابن الذي ليس منك! الهمس الذي واصل الابتعاد في خلجات النفس التي لا تعرف ، عند الأجمة التي عرّاها من أغصانها انحدار شديد في التربة إثر عمليات مسح وحفر وتجريف قامت بها الآليّة العسكرية الإنكليزية لتأمين طرق المواصلات لهم تحفّ بهم مسطحات مائيّة فسيحة وأدغال كثيفة التفت ذات يوم بأجساد العشرات من أبناء الفلاّحين وأطفالهم ونسائهم وبساتينهم وبيادرهم وحيواناتهم ، مكشوفين تحت نيران قصف مكثف ووحيدين دون إسناد من أحد . لقد تخطيت المائة . . بكم سنة؟ كم حربا؟ لا أحد يستطيع أن يخمّن . حِجْرك مهبط الرؤوس وتلك الانحناءة ذاتها تبرز قبالة الباب حين ينفتح في منتصف الليل ليدخل سعيد يفتح صنبور الماء عند شجيرات الآس فوق رأسه ، حتىّ ينقع جسده تماما ويلتصق بثيابه ، ثم يخوض البركة الموحلة من تحته ويخترق رواق البيت ماسّا طرف السجادة الأثيرة لديك بجزمتيه المثقلتين بالماء والطين ، وهو يصعد إلى حجرته المقوّسة جدرانها من الداخل والمطليّة بالزيت فيرمي جسده المخضلّ على فراش عريض ويغطّ في النوم ، فيما ينكسر تحت ضوء القمر على حافة السياج ، خارج الحجرة ، ظلُّ هرّ مغتاظ تحت وطأة الشخير الحادّ الذي راح يتصبّب من فوق ، سبقه شلاّل من اللعنات اعتاد أن يهيلها على الأتراك والإنكليز والأربعة عشر عاما التي سرقت ظلّه ، والابن الذي تأخر مجيئه وهو الذي تزوج من أجله

مرّة واثنتين وثلاثا ، وكلهن أنجبن إناثا إلاّ زينادين لايعرف عنها شيئا ، تركها حاملا عند أهلها في سنجار . وأنت يا أنت يداك تهزّان مهدا خاليا في منتصف الليل ، يئزّ خشبه ويعوي . . لكن عندما يضع رأسه بين يديكِ ويبدأ بالكلام تعرفين ومن نبرة صوته أنّك امرأته الوحيدة ، فيتراجع وحش الغيرة ، يصبح أليفا ، وما كان ليعضّ حتى لو وضعت الواحدة منكن أصابعها في فمه! ، فهمّ حياة الرجل افترس كلّ ذريعة للكره والنزاع ، هو الحيّ الميت والميت الحيّ في ذلك الصمت الذي تخوضانه ركبتاكِ وقد زحف هو بألم جرح متسلقا مرتفعا جبليّا . كانت الشمس تسطع بشدّة فتُسقِط الأرض على نفسها كلّ ما تتوقعه من ظلال الأشجار والطيور والحجارة والبشر والدواب والأبنية ، بل وحتىّ تلك الظلال التي تخلفت عن الركب ، والتي ضلّ بعضها في طريق مجهول هبطت أيضا في أخاديد وتعاريج ، معها خيولها راحت تتزحلق في المنحدر الوعر ، لها مناقير تلتقط الشمس التي زخرفت المكان فبدت اليابسة من تحتها مثل شجرة معمّرة بيضاء ، أوراقها شاسعة ، وعين الشمس تدفع بالظلال إلى أقصاها ، ميدوزا تحجّرها فتسرقهم السكين ، الأحياء ، حينا وحينا تشفّ أجسادهم في الضياء المنعكس لتجفّ أو لتصاب بالتحلل إذ تتهاوى عليهم ألواح الضباب لوحا فلوحا . . ، هكذا يتفسّخ الأموات : قلتِ ، وشددتِ على الحروف ، دسستها كما دسستِ علامات المهرّبين والأدلاّء في الرمل ظنّا منك أنّ رجلك سيكفّ عن الترحال ويكن ويستكين . كان طائر

التطوى يحوّم ويصيح فرفعتِ رأسك إلى الأعلى متمتمة : ماذا أتى بك يا طائر الشؤم؟! . لم تشعري بالظلّ وهو يقف من خلفك ، رآك وأنت تمسحين بباطن كفك على الرمل ، وسمعك وأنت تتمتمين ثم نهضت وأسدلتِ حجاب الوجه وسرْتِ فسار وراءك يحرسك في الخلاء الشاسع والمخيف حتىّ سور المقبرة ، وحين اندسستِ بين نسوة ينحبن عاد أدراجه ليقف فوق الدفينة ملتفتا نحو مصدر النحيب تارة وتارة صوب الطائر ، يخفض رأسه أسفل صياحه المتقطع ليمشي متواريا بين القبور . فيما كان الأب يتكدّس في شجرة الزخرف وزخرف الشجرة المحفورة همسا ، والظلّ بملاقطه السود ينتزع لحم الضوء المتناثر أوراقا وزهورا وعينين زيتونيّتين وضفيرة ذهبا ، ثوب العرس الذي لحق بها طويلا أبيض كنهار تمّوزيّ يدفع بجرف إظلامه إلى حياة خاصة بزينادين وحدها . وهو يجمّع كلمة الماء من حيث كلّ شيء يُرى حتى التمتمات في الدهليز الذي شقهُ النهر قديما ، وراح شبح أمواجه يندفع ، ينبش الحصى والرمل فيغمر يدها الشفافة من تحت القميص ، . . ترى أيهما كان شفافا يدها أم الماء؟ ومن فسحة بين الاثنين دخل الأب وغرقا معا هو والماء ، لتطفو من فوقهما مهسهسة بقعة ضوء سينوء بحملها الإبن ، بقعة خلّفت بقعة على ظهره والظهور التي ستليه .

٥

بيت الظلّ ظلّه فسيح ، يلقي بنفسه على الجدار المقابل حتىّ منتصفه ، مرتعشا وسط اهتزازات الفوانيس المعلقة كمن يتلفّت خائفا وهو يبوح . . ترى هل سيطرق سعيد الباب وهو يقف قبالته حيث اعتاد أن يناديه بعد طرقة أو طرقتين؟ ظلّ صامتا هذه المرة وفي أعماقه استفهام مدوّ : شمردل . . يا دليل شمّر . . الليل وحش فكيف سلّمك إليهم وأنت وحش مثله؟! لم يردّ أحد عليه . لكن جوقة سكارى دلفت فجأة إلى الزقاق فاندفع إلى الظلمة متبيّنا وجوههم واحدا واحدا دون أن يتبيّنوه ، كان ذلك الغول السكران الذي يترنّح ، طرخان وعصبته المارقة يمرّون دون أن يحسّوا به وهم يرعشون الظلمة ويستبيحون وقار ذلك السكون بأصواتهم المنفرة وعباراتهم الخادشة للحياء ، وقد تخلف أحدهم مندفعا إلى الوراء تارة وتارة إلى الأمام يودّعهم بيده ويدور حول نفسه ببطء متسائلا : أين الباب؟أين ذهب الباب؟ ثم متلمّسا الحائط فجذبه سعيد من ذراعه بقوة وقد تعاظم في نفسه الشعور بالخسارة ، وجعل ينفضه بعنف ويهز جسده بالكامل على الحائط :

– ماذا تفعل مع تلك الحثالة؟

– من؟ سـعـيـد؟! من تريدني أصـاحب إذاً؟ أصـاحـبك أنت لأحمل عنك حبس أربعة عشر عاما أخرى كما فعل أبي؟

– أنت مخطىء . ليس عندي ما يحمله أبوك عني أربعة عشر عاما . . إنّه قدر ساقته إليه مصادفة تعسة بالتأكيد .

– من كان يحمي بسكوته إذاً؟هه؟ قل لي من؟ إن لم تكن أنت فمن يكون؟

سكت سعيد وجعل يتابع بنظره ما يمكن أن يكون قد خامر الفتى لحظتها . وكان هذا قد تكوّم على عتبة الباب وهو يفتح بصرهُ بصعوبة بين مصدّق ومكذب ، وأحسّ سعيد بما يجول في خاطره فطرق باب البيت بقوة أيقظت من فيه وأردف : تصرّف بما يمليه عليك إحساسك ولكن مثل الرجال . ثم استدار ليواصل سيرهُ وعيناه محتقنتان تكاد الحرارة تشقّ جبينه . وتصير المحنة قناعا يتضاعف الزمن في داخله ، وعلى الرغم من أنّه لم يعش المحنة بمفرده ، فقناعها الذي اصطفاهُ اصطفى معه امرأة من سنجار كان قد تركها عند أهلها وعاد ، أحسّ بيدها ذلك الطائر القديم يهبط وطيئا أسفل وجهه ، وثمة الحزن والرغبة يتملكانه فيما يتواصل في أعماقه نداء أعنف من كل ما سبقه ، وكأنّ شيئا وشيك الحدوث أو طالعا ثابت الظهور لاتحجبه الحجب ينبض ، أكان من الممكن ألاّ يكون قد أصغى إلى تلك النبضات التي تطلبت قوة كقوته وجعلت من حياته معبرا لايملك

هدمهُ ، فيقود لما هو مؤكد فلا يقدر إزاءه غير التوزّع في الظلّ ، إلاّ إذا كفّ عن أن يكون مسكونا به ، هو الذي يموت فيتناهب الوسواس خصومه خشية عودته . وأيّا كانت النهاية فقد أوجزتها علامة كالقتل لاتعطي مهلة ، متصلة الذاكرة ، لايحيّدها اسم بطل الزورخانة ولا جسده المفتول الذي استدعى شبح اليد فحلق وطيئا أسفل وجهه ، وصوتا عجز عن أن يصف رجلين إذ جعل هدْمُ صورتهما يتواصل فيلملم كسرها ليرمّم في ذهنه ما تثلم منها فإذا أخطأ في تشخيص أحدهما فإنّه لن يخطىء في ظله ؛ وقد وقف على طرف المسافة عاجزا عن الإتيان بما سيحدث ، من حيث أنّ قوّته التي لم تعد تنتمي إليه تتواصل مع الصوت الذي بدأ للتوّ يصف في تخوم ترامتْ من رمل وكلمات ، وقد استغرق في وجهٍ يغوص حيث وبعد نقب طويل وقد طفت تجاعيد الوجه متموّجة . . استرخى . . وجعلت توسوس في رأسه وصفة الوصفات تلك التي بقيت إلى النصف ملفوفة في خرقة في جيبه ، توسوس الوصفة اللعنة بل تحفر فتلتمع مقاديرها ، وتمتلىء مخيّلتهُ بالغبار وبنداءات لم تعد تجدي . رأى فيها الشمردل وهو يجمع تلك المقادير ويلفّها في الخرقة ، ورأى العسس يظهرون فجأة ويقتادونه إلى السجن ليودع فيه أربعة عشر عاما . لعلها تلك أقصى نقطة في جسده ، والتي راح يدور ويحوّم من حولها مثل طائر مذبوح ، وقد تلاشى الرجل الآخر في الكلام متحوّلا إلى صوت جعل يقترف أشياء كثيرة إذ يفتح حقيبة فيغرق الظلّ في محيطها ، يطفو ويغرق ثم

ينقطع الصوت ويتلاشى الكلام إلى جانب الحقيبة ، ويعود يهمس فيما الآخر يطفو ويغرق :

* ابنك ضحك عليه طرخان وألحقه بحلقته الموبوءة . فشطّ عقل امرأتك ، دارت بهوس وهي تحمل خرقا مبللة تنظف بها بطون المجاري في البلدة ، فحجرها أخوتها ، لفوها بالحبال ، لفوا هستيريا حبال على هستيريا بشر .

* أختك حطمّ قلبها رجل غريب . وعدها ولم يفِ! . . فتكدّس عليها الغبار وتراكمت الأتربة وهي ترفو الملابس القديمة في حجرة بداخل حجرة .

* جدرانك رطبة ، بيتك أطفأه الفقر ، وقد سكتَّ أربعة عشر عاما بل حتى لو متّ ساكتا ما كان ليأبه لك أحد فالناس لا يتذكرون الفقراء ، والأيام لا وراءك ولا أمامك وأنت تمدّ قدمك لتعبر المتبقي فيك من الظلّ .

كان الاثنان على حافة الرذاذ المتطاير من المحيط ، أحدهما يجهد وهو يتكلم دون صوت ، والآخر يصغي دونما سمع في قتامة بادية ، كأنّ العتم ما وُجِدَ إلاّ من أجل أن تلتمع وحسب رؤوس الأمواج حادّة كالأسنة التي ستمزّقهُ ، دقيقة كالمناقير التي ستلتقط أحشاءه وأسراره وهو ينفض رأسه من فوق المحيط فيدسّهُ ذاك ثانية ، فنفض سعيد رأسه بانفعال مثل ظلّ سحيق للظلّ نفسه ، متمتما : إلهي أسألك اللطف . وواصل سيره منقلا بصره في الطرق التي راحت تلتفت

منعطفاتها حيث تمتدّ البرية فيزداد التغضن على جبينه وحول عينيه . لن يذهب الليلة إلى كرامة لا يريد أن يختلف معها ولا مع زوجتيه الأخريين ، وقد وجد نفسه قبالة منزل الأختين العجوزين قيسة ونهاية ؛ فطرق الباب وقد عرفتا طرقته ففتحتاه على الفور وهما تنقنقان كعادتهما وقد تبرّأ لساناهما منهما . والعجوزان تقربانه من جهة أمّه وطيبتان رغم أنّهما تتناقران كدجاجتين ليل نهار . وكان إذا ضاق ذرعا بنقنقتهما وصف إحداهما بفكتورة(*) ثمّ أتبع الاسم بأقذع الشتائم ، فتسكت الأخرى ظنّا منها أنّ فكتورة هذه كما اعتدن تلفظ الاسم (فشّورة) .

قالت قيسة ونهاية تنظر إلى حلقها مشجّعة :

– البارحة جاءت كرامة تسأل عنك وخرجت اليوم باكرا ، ألم تذهب إليها؟

–لا .

– يساعد قلبك يا كرامة ، وماذا عن الأثنتين؟ استدركت نهاية .

– ولا الإثنتين .

فردّت وقد تملكها الغضب :

– هل اجهّز لك العشاء؟

– لا . مدّي لي فراشا أريد أن أنام .

(*) المقصود بها فكتوريا ملكة إنكلترا .

ولم تستطع قيسة أن تمسك لسانها فقالت وقد نفد صبرها :

– هذا (مو إنصاف تغيب تغيب وتدوّخ المسكينة وراك) .

– أريد أن أنام .

لكنها ظلّت تلحّ بالأسئلة وهو ساكت فصاح :

– فكتووووووووووو

فجفلتا من الصوت وجعلتا تتوسلان بجاه الحبيب محمد ألاّ يكمل جملته ، ألاّ يذكر فكتورة هذه لابالحسن ولا بالسيء . ثم ركضتا وهما تغمغمان وتهمهمان بكلام غير مفهوم ، وأسرعت نهاية لتمدّ الحصير والفراش ، ووضعت مخدّتين واحدة على الأخرى وهي تدردم ثمّ لحقت بأختها وصوتها يأتي من الداخل :

– إطفىء الضوء كي تنام . وأردفت : نريد أن ننام . وكرّرت بفتور ثم سكتت . يبدو أنّها نامت .

والرجل يتقلب ، لا يغفو ، لا يطفىء السراج . الوصفة اللعنة تدور في رأسه ، وذي حياته أحلام تركها له موتى ذهبوا بعيدا في دردشة بينهم وما عادوا يسمعونه ، ثمّة أصواتهم في الخرائب وصدوع الأبنية القديمة ، ولأنّ الأحلام لا تتوقف ولن تتوقف يزاول المرء حياة مفترضة تقترح التسلق إلى الأسفل في العمق ، تحت الرمل وتحت العظام ، أسفل أيّ شيء يتدلّى من خيوطه التي نسجته ، وعنّت بباله أسماء وذكريات وهاجس سيلفّ خطواته في الخلاء الشاسع خلف مرجين أو ثلاثة ليجد نفسه في برس(*) يختبىء في منحدر طيني وعر ؛ وقد لمح

سيارة تتقدّم على متنها بعثة أجنبية فرنسية انكليزية ، وعلى مقربة كان صاحب الحقيبة يفاوض راعيا حول غنماته ، وانتهى إلى شراء حوالي عشرين رأسا ، فطار هذا من الفرح وترقب وليمة فاخرة ، لكنهم اعتذروا منه لعدم إمكانهم دعوته ، وأوصلوه إلى أهله بالسيارة لتستدير بهم ثانية . رآها وهي تغادر في الاتجاه نفسه الذي قدمت منه ، فعرف أنّ شيئا ما يدور في ذلك المكان ، فعاد من حيث أتوا به راكضا تارة وتارة زاحفا ، وحين صار على مقربة منهم ظلّ مستلقيا على بطنه وقد أكملوا حفر الموقع بمحفار كبير له صوت يصمّ الآذان ، وقد تطايرت رشقات ترابية رطبة بعض الشيء جعلوا بعدها ينزلون الخراف في البئر ثم يخرجونها بعد قليل متورّمة بسبب اللدغات ، وكرّروا العملية ولكن هذه المرّة بخراف مسمّمة ، وظلّوا كذلك حتىّ شارف النهار على الانتهاء ، أنزلوا بعدها كبشا وكبشين معافيين ليخرجوهما بعد نصف ساعة تقريبا حييّن سليمين ، وأجروا التجربة مرّتين وثلاثاً حتىّ اطمأنّوا إلى أنّ البئر قد أمست خالية من الأفاعي ، عندئذ نزل أحدهم وتبعه اثنان بعد ارتدائهم أقنعة ، حاملين عبوات الأوكسجين على ظهورهم كالغواصين ؛ ليخرج الجميع ثملا من شدّة الفرح وقد حملوا معهم لقى عجيبة من الذهب والعاج ، ورِقاً كبيرا ورُقمُاً طينية مهشّمة وضعوها في السيارة وانطلقوا بعد أن ردموا البئر وأزالوا العلامات من حولها ، دون أن يحسّوا بوجود أيّ من الرجلين .

كانت الشمس صخرة حمراء مشعّة هائلة تتدحرج ببطء من

نهايات السماء لتمسّ قشرة الأرض ، تاركة وراءها صحراء شاسعة شكلتها غيوم رمادية مع ضربات خفيفة من الوردي والبنفسجي ، وفيما هم يغادرون الموقع مبتعدين اقترب الراعي مشدوها من أكداس خرافه الميتة وقد طار صوابه للمرّة الثانية ، فالمرّة الأولى كانت عندما باعهم عشرين رأسا بسعر لم يكن ليحلم به ، وجعل يدور حول البئر عاجزا عن الكلام ، وطفق يحفرها ثانية مسلوب اللبّ والخاطر ، يحفر وهو يسبّ ، ويسبّ وهو يحفر حتىّ تكشّفت الفوهة ؛ فأطلّ برأسه منها ليرى أكباشا أخرى ميتة ومن حولها لفيف من الأفاعي ورائحة خانقة تتصاعد . عند ذاك صرخ بكلّ قوّته في الجوف السحيق الخانق وارتمى جانبا يفرغ ما في أحشائه ، كل ذلك وسعيد يراقبه صامتا ثم اقترب منه وهو يضع يده على كتفه ، فجفل الرجل وظلّ ممسكا به بيد وباليد الأخرى راح يردم البئر ، وفيما هو كذلك سقطت من جيبه تلك الخرقة التي لفت وصفة الوصفات زمنا لم يكن بالقصير وراحت تتداعى ، فانخلع قلبه وهو يتأمّلها تتدحرج عميقا متوارية خلف الأكباش الميتة ولفيف الأفاعي الخانق . عند ذاك هال الكومة الأخيرة من التراب فوقها فدُفِنَتْ الوصفة قبيل الظلام وتحقق الشرط الجوهري لتحققها! .

– والآن أيّها الراعي . قال سعيد واستطرد : حفروا البئر بأيدينا ، أطعموها خرافنا ودفنوا فيها سرّنا بأيدينا أيضا . على أي منّا الآن ألاّ يسهو . ألاّ يغفو . ألاّ يلتفت . ألاّ يخاف . ألاّ يتراجع ، وحين يدوّي صوت ، اسمعني جيّدا . . هل تسمع ؟ نفّذ ما أقوله وإلاّ ضعنا!! لكنّ

الراعي وقد نهض وصار يدور كالمهووس وبدا عليه أنّه لم يكن مصغيا ولا مقدّرا لكلام الرجل حقّ تقديره ، فجعل يصيح عاليا :

– أخذوا الذهب . سرقوا الكنز . صار لهم وحدهم أولاد الكلبة . أولاد الكل . . . . بة .

ثم استدار راكضا وما كان عليه أن يستدير ، ولبث سعيد بانتظار صوته . ظلّ راسخا مثل فكرة على حافة البئر المردومة شاخصا فيها ، فيما انتشر ظلٌّ هائل نبت له زغب في أنحاء مختلفة منه ، وظهرت آثار قوادم ، والظلّ يمشي ، له شكل طائر ضخم الجثة ، يغطيه تماما ، ضاما إيّاه فيما الريح والرمل يبريان جسده ويحكّان صورته في الوجود ، كما لو كانا يحكّان بمهارة وجوده في صورة من ورق ويمحوانه محوا دون أن يتركا أثرا ؛ ليلتمع بعد هنيهة رأسه ، وعيناه بين الآلاف من الرؤوس والعيون ، تمرّ قافلتهم قاطعة بهم أكثر من ذاكرة . ذاكرة يراها ويسمعها الناس ، ذاكرة لا يراها ولا يسمعها الناس ، أخرى تسير بالضدّ من أخريات فتحتكّ أجسامهن بعضهن ببعض ، فيما وعند خط الانحراف تنتشر أرواحهن في الأعماق المتقابلة . ثم ذاكرة أخيرة هي خاصّة الطائر الظلّ . . . تلك هي صوت خفيض راح يزداد انخفاضا عند حافة البئر ، يرتفع أحيانا ، يتلوّى مثل يد ، مثل عنق ، صوت يسدّد عينيه وسط الغبار مختلطا بهمهمات وتعطفه دفقات من الهواء .

(*) برس هو الاسم الشائع لآثار بورسيبا .

٦

[وأنت تقشرين الهواء! ، ويستدير المكان على ثلاثة أبعاد ، ينفتح متأرجحا على بعده الرابع فتزيحين كومة رمل وحائطا ، الخامسة صباحا ، أمام مدرج البلديّة ، أسفل الساعة تماما ، حيث تجلس تلك المرأة الملتفة بعباءتها ، وجفناها يمشطان أواخر الظلام ، وعلى مقربة مجارف مسننة ولغط كناسين يخطون بمكانسهم على الأرض . قد يكون هنا ، قد يكون هناك ، قد تغفو قليلا . . قد يمرّ طيفه في حلم ولو لعشر الثانية ، الحلم به ماء ، الماء حول منزلها الذي يجذف خاليا من بداية الحلم إلى نهاية الماء ، وكتاب الله كما تركه ظلّ مفتوحا عند الصفحة عينها ، السطر عينه ، وعينها لاتغفو . . وأعرف كلّ شيء! . . لا تخافي! . . لن أفتح فمي بكلمة واحدة ، أنتِ تقشرين الهواء وأنا ألمّ قشوره وأحصي استدارات الحيطان ومضاعفات بعدها الرابع ، ما زلنا أمام مدرج البلدية ، أسفل الساعة ، وعند الخط المطمور للسكة الحديد ، عربة القطار المهملة وقد تخلّع باباها متأرجحين فوق سلّم صُفّ من عوارض خشب ، فيما بقيت منافذها الأخرى مفتوحة ومتهدّلة كأفواهٍ مصابة بالهذيان ، بالإمكان من هناك مشاهدة مسالك

الدود وهو يتسلق العوارض وينزلق من الجهة الأخرى ، منسحبا من الأجساد المتكدّسة الميتة . وكان ما يقطع خط النظر من المدرج إلى القاطرة العتيقة ، عربات جمع الأوساخ ، اثنتان منها تناوبتا العبور تكنسان الشوارع ثمّ تتجهان خارج البلدة في العراء نحو حفرة كبيرة!

أيّة رائحة للإنسان حين يموت ويتأخر مكشوفا ، في الحقيقة أننا نحسّ بالقنوط إزاء حقيقة ، جيفة كهذه ، وكلما ازداد التجرّد من الحواس وتوغلنا في العمق المكتظ بالأشياء حتىّ النقطة الصفر وعصبها النابض ، دفع الخوف مما كنت موقنة ، مما تجهلين ، بغريزة الحياة إلى رأسك بتلك البدائية ، حين ومتسربلة بثيابك العريضة ، خرجتِ مع من خرجوا في زقاق نوافذه مزجّجة بالأزرق والبرتقالي ، لمحته وهو يدلف إلى مغتسل الموتى فدخلت وراءه ووقفت حذاءه تماما ، رأيته وهو يمدّد جسده على مصطبة صامتا يحدّق في الفراغ فسكبت الماء من فوقه فيما بقي هو صامتا وأنت تسكبين ، وفي الباب سُدّدتْ حشود من الأقسام نحو صدور الموتى ، رشّتهم رشّاً فامتلأ فمه بالدم . . وانكسرتِ .

هذا ما رأيته في منامك . امرأتان مسنّتان أمام مصطبة ينهمر منها الماء وأنت طفلة تبكي وقد انغرست في ساقيها أشواك من سعف النخيل ومن حولها ريش منفوش . هل قلت إنّكِ كنت نائمة؟ إذاً استيقظي ! كوني معي رجاءً . فجأة قطعته قامتك السوداء البياض المدوّر البضّ المرتدّ عن ماء جسم الصبي ، وضعتهِ برفق على لفائفه ثم

رفعته إليك وخرقتِ عويل النسوة اللائي حوّمن مثل قطيع جائع تلمّس عبثا بطن المرأة التي ماتت . شخرتِ في وجهه كأبيه وُلِدَ بعينين مفتوحتين ، كجدّه أمّهُ ماتت وهي تضعه ، السرّ في بئر ، بهاتيك التمتمات تحرّكتْ شفتاك الرفيعتان المشدودتان إلى عظم الفكّ الساقط أو هكذا كان يبدو كقاع سحيق علقت في سقفه حشرجة لزجة كادت تخنقك ، منديلك المفعم برائحة جسمك القوية يغطيه ويداك تحيطانه مثل سمطين معقوفين وتائقين . كنت واقفة منحنية عليه هكذا ، ربما إلى الآن ، مثل جؤجؤ نتأ في الرمل من بقايا سفينة أو عظمة لطائر دفع بأحدهما عباب ممخور ، وتماما راسخة قامتك في الهياج الذي تخلّف وراءك نافثا كمنخرين ممزقين دوّامة رجرجت الماء في القدور ، قلبت الأواني ، الصحون ، وتطايرت أغطية الأرائك ، الصور المعلقة ، فيما عبّأت الرعّاشات الزاحفة من البرك القريبة الهواء بنثار أصفر كثيف ، بسديمية سميكة تكوّرتْ بعناد ، اجتزتِها ، اجتزتِ الباب الذي ظلّ مواربا دون أن تذري رائحة ، أثرا ، للأحد الذي سيأتي كي يسأل عنه . وفي الممشى وأنتِ تبتعدين عن حجرة الحريم اصطفق وراءك شبّاك مكسور انفتحت ردفتاه بتراخ فوق قطع أثاث مهجورة راحت تخفق من فوقها بيوت العناكب مثل فم ميت محشوّ بالخراب .

الكلّ ينسى . . . قلتِ . لم يكن الأمر كذلك أيتها السيدة الجليلة! . . في تلك الليلة المعمّرة ، رأسه المحشور بين أضلاعك وأنت

جزءا الليل المستأصلان من آجر المساكن ، حين التفتَّ كنتما تمرّان بنعاس الأهالي ، بالظلمة المتهدّلة من الشبابيك ومن السطوح رخوة كأعضاء مصابة بالخدر لحيوان جعل يزحف . ما كنتما مجرّد اثنين فرّا من القطيع! . .

قضيتِ حولا كاملا بين ظهرانيّ شمّر دون أن تسأل تلك امرأة سعيد عن وجهتها إكراما لها ، لكن وهي المهدّدة من أفخاذ وقبائل أخرى طوال مئة عام وأكثر ، الراحلة على طول الفرات ، تركت لك الخيار فعدتِ . أيّ معول يدقّ في رأسك ويقودك إلى نفسك الخالصة إليه؟ . .

وحدهُ طرخان ذلك الشاذ القميء يعرف متى وكيف غدر به ، صرخت قيسة في وجوه الورثة بصوت موجوع :

– (شوفولكم صورة حال . خوماتظلون ساكتين)

وأعقبت مولولة :(حجارة آل متعجب تفشخ يمه . . يوم)

وردّت نهاية : (صفت الديرة لأمّ طيرة . . يوم)

ثم رددت الاثنتان بلحن تعدودة متقن(وطارت بيها خيّه فرد طيرة) . .

وتتضاءل صورة المرأتين وتخفت ولولتهما إذ تبتعد الحجرة في البيت القديم وتأخذ بالانقراض ، لم يبق منها سوى ثقوب معتمة في الحيطان تهالك عليها الضوء المنسكب من سقف الحوش ، فيما ظلال الأعمدة في الرواق تصرّ على وجود غادر وغرفة باتت مفقودة .

٧

[تعـرفين من هي أمّ الفـتى! . هل هي زينادين الكردية؟ أم إنهـا شهـدة التي بأعلى السلّم ، وحين استدارت قليلا إلى الماضي صارت شهـدان أصغر أخوات الرحيمي ، يفصل بينهما أربعة ولاة وطاعون وكوليرا وبريّة ثالثة انفتحت على المقبرة ، وبساتين غاصت أسفل منسوب دجلة ، وتليّفت جذوع أشجارها وأهدرت محاصيلها . وشهدان التي بأعلى السلّم وتصيرها شهدة ، انتزعها عباس جاوة من قفص إلى فضيحة ، وانتزعته هي من ستّ أخوات أو أكثر كان قد وعدهن بالزواج ، دون أن تعلم الواحدة منهن بالأخرى . وفي ذلك اليوم لم يعد الرحيمي ولا في الأيام التي تلته وقد كفّتْ القرغيزية عن هزّ جذع شجرة النبق السامقة كعادتها في لمّ ثمرها ومناولته لأطفال المحلة ، بدلا من غمر المنزل بالحجارة وتكسير النوافذ وخدش زخرفة الباب الخشبية الرئيسية ، وجلست ساهمة تشاطر أخواته القلق ، لكنّ قلقهن كان من نوع آخر ، فابن القرغيزية الذي جمع بينهن استقرّت عيناه في خاتمة المطاف على صغراهن وأحلاهن ، تلك الرشيقة خفيفة الظلّ كالفراشة والمتوثبة للقفز من ثيابها كالغزال . قد

غـاب تلك الليلة أيضـا ، وظلتْ عـيناه ، الليلة تلك ، شـاخـصـة في الغرف وقد التمعتا مثل بحيرتين أغرقتا جسدا طالما اشتهاهُ وتشهّاهُ ثمّ أغمـضتا بالقرب منه . وهنّ ينتظرن في حـجراتهن حـتى الفجـر وقد ضـقن ذرعا بسـررهن ، فـرحن يفـتـحن ويغلقن أبواب بعـضـهن غـضـبـا وجنونا وحـرجـا وهنّ يبـحـثن وينقبن ويتـسـاءلن ، وتكاد مـقـاصـدهن تنكشف حتىّ وجـدن المكاشـفـة أهون عليـهن من لوعـة الجـرح وأخفّ وطأة من النار التي رحن يتضرّمنها غيرة وكـراهية وندما على ما فات من العمر ، وخزيا على ما نابهن من فضائح ؛ وقد تغيّرت قسماتهن وفقدت أصواتهن نعومتها ورقتها ، بعضهن أفرطن في الأكل والنوم ، فصـرن بدينات خـامـلات بطيـئات في الفـهم والحـركـة ، يمضين وقتـا طويلا في فكّ أزرار قـمصـانهن ويبذلن جهدا في خلع ثيـابهن وتمشيط شـعـورهن المعـقـوصـة إلى الخلف دائمـا ودون عناية . ورغـم شـهـيّـتـهن المفرطة للأكل إلاّ أنّهن بدون شـاحبات وبانت عليـهن إمارات التقدّم في السنّ . أخـريات دائبـات على السـهـر والحـركـة لم يسـتطعن الاسـتـرخـاء أو الجلوس في مكان واحـد ، وقـد فـارق النوم أجـفـانـهن وفـقـدن الشـهـيّـة إلى الطعـام ، فـبـدون عـجـفـاوات وقـد انتـشـرت في رؤوسـهن بقع خـالـيـة من الشـعـر ، وبرزت عـروق رقـابهن وأيديهن وأرجلهن ، يتـسـاكبن الزيت والنار والرمـاد بينهن ، وتقـرّب الشـيـاطين رؤوسـهن وتبعد ما بينها فتنعقد الألسن والأذرع والسيقان والأعناق ببـعـضـهـا ، ويغـمـغم فـيـهن بهـوس كـائن واحـد مقـتـاتا على نارهن

وحطبهن ، كلما فحّ أطعمنه المزيد وهنّ على ماهنّ فيه أمام الدرج في مسكن الأخت الفارّة العاقة الشديدة الإثم شهدان ، التي بأعلى السلّم وبيدها فانوس تنقل بصرها عليهن واحدة واحدة ، وفيما هي تحاول النزول وهنّ يهممن بالصعود انزلقت قدمها وراحت تتدحرج إلى الأسفل وقد أمسكت النار بثيابها ، فوثبن إليها يحاولن إطفاءها إلاّ أنّ كائنهن سبقهن فالتهمها تماما وبدت ألسنة النار في فمه متلمّظة تطلب المزيد وملامح الأخوات تتشنّج غير مصدّقات ، فالعيون جاحظة والأفواه مشدودة وقد برزت منها الأسنان طويلة على غير طبيعتها ناتئة في لحم أحمر انبعثت منه رائحة تلك السنوات التي تخمّرت طويلا على سرّ فاح أخيرا ، فلملمن أطرافهن وأسدلن خمرهن على وجوهن وخرجن يجرجرن الخطوات عائدات إلى المنزل كسيرات عليلات ، انطرحن على الأسرّة وكائن النار متخم يتنقل بوهن بين الغرف ثمّ يقعي ذليلا عند قدميْ القرغيزية ، التي أكل الحزن قلبها وهي تشعل باكية بمرارة شموع مآتمهن شمعة شمعة . . مأتما مأتما .

٨

بقيت أملاك الرحيمي بحكم المسكوت عنه . وهذا في الحقيقة ماكان يجول في خاطر صاحب الحقيبة الذي صارت تطول قعدته أمام دكانه يلفّ سيجارة تلو أخرى ، ويجمع ويطرح ويقسم ، وفي الخاتمة يصفيّ الحساب خطأً . هو عرّاب وشاهد الزيجات السرّيّة أمام الباب العالي ومن خلف الباب العالي ، والمشارط والعقاقير واللفافات التي في الحقيبة تشهد له!

يُطلب في الملمات فيأمر فيطاع! ، وإبليس الذي لا يلبث أن يخرج من عبّه حتى يعود إليه قد توسّد السرّ في داخل الحقيبة ، إلى جانب المشارط تلك التي ستسبق أيّ مغفل فتحزّ له عنقه ، فينفض كل ما في جيبه من مال وأوراق وأخبار ، وطرخان شاهد وصباح ابن عصمت أفندي الذي يعود في نسبه إلى ناظر أملاك الخزندار شاهد ، أيضا ، زوج رومة ذات الأنف المأكول من فرط ما تدسّهُ في شؤون الناس تفوح من قدميها رائحة أطراف ذلك الجورجيّ ، الجدّ الشاسع البدين المترامي ، والذي أضاع ثروته فقدم إلى العراق في محاولة لتعويض خسائره علّهُ يجد الفرصة ليهمش مع الهامشين ، فيعيد ثروته

ومكانته ، فزيّن نفسه بما تبقىّ من هلاهيل لقب الباشا ، والتي لم تسعفه كثيرا عند حالت أفندي ابن رئيس الكتّاب في اسطنبول ، ولا عند نابي خانم والدة صديقه القديم ووالي بغداد آنذاك سعيد باشا ، الذي كان يخوض معركة حياته من أجل الاحتفاظ بمنصبه . فلم يكن بقاؤه على رأس الولاية ليعجب حالت أفندي مذ رُفِض طلب هذا الأخير بتعيين اليهودي عزرا (باش صرّاف) في الحلة ، بدلا من ساسون الذي كان مقرّبا من نابي خانم ، والذي كان ينهب الرعية لصالح الحكومة والحكومة لصالحهما . فدُسّت الدسائس لعزل الوالي الذي انبرى يدفع للوشاة والمقرّبين من السلطان ما يطلبونه ، مما اضطرّ ابن رئيس الكتاّب في اسطنبول إلى ضرب الحديد والنيكل والنحاس و(السبع معادن)(*) أجمع وهي ساخنة ، فسكّ له عزرا نقودا تحمل اسم سعيد باشا بدلا من الطغراء السلطانية ، وما كان بعد ذلك أسهل منه الإتيان بفرمان العزل عن الولاية . ويقال إنّ الفجيعة التي انتظرت نابي خانم ما كانت لتتوقف عند عزل ولدها وحسب بل كانت أشدّ وأعظم حين ذهب لزيارتها ، وفيما هو يضع رأسه الحزين في حجرها وهي تمسح بيدها عليه وتفكر بوسيلة تعيد لولدها ما ضاع منه ، تدحرج رأسهُ بغتة وعلى غفلة منهما حين داهمهما حرس أنكر الوالي الجديد أيّة صلة له بهم . فمات مفلساً الجدّ الشاسع المترامي

(*) سبيكة تصنع منها الحلي .

الأطراف ، بعد ذلك بسنوات وباشا مهملا على سريره . ولم ينس الأحفاد أنّهم سليلو باشا وإن كان مفلساً . وكانت رومة ممن تعلّق بهُدْب ذلك اللقب فتزوّجت من سليل ناظر أملاك الخزندار الذي لم يكن أقلّ خيبة من جدّها ، ظناً منهما أنّهما سيعيدان الجاه والمال بسرقة أحدهما للآخر ، والواقع أنّهما ، وعلى الرغم مما عُرفا به من قدرات على حبك الدسائس والحيل ، إلاّ أنّهما لم يكونا يتمتّعان بذكاء كافٍ تجاه بعضهما .

نهمة في الأكل وفي الفراش ، تعضّ وتخمش وتقطع الشعر ، أسرّ صباح في نفسه وقد قرف شبقها وورقتي أنفها اللتين تنتفخان مرتعشتين أسفل وجهه ، رغم أنّهما مأكولتان أصلا ! ، ربّما احترقتا مع سائر ما احترق عندما كادت أن تحرق نفسها في إحدى الليالي جزعا ويأساً من عودته ، وقد باتت طلتهُ على المنزل أحلاما ورديّة وهو ينتظر كلّ ليلة ابن عذاب ريثما يفرغ هذا من عمله كمنظف في إصطبلات الإنكليز ، مقابل بضع ليرات ، وعندما يكون مزاجهم رائقا فإنّهم يغدقون عليه بالهدايا من ملابس وصابون وعطور وبسكويت . وقد جذبت صباح تلك البحبوحة التي كان يعيش فيها ، فجعل يتسقّط أخبارهم منه حتىّ استدلّ أخيرا على ملتقى لهم عند طرخان يدورون ويلفون في حلقته ، تتحسّسهم أصابع صبية أغرار ناعمين وقد قرّحوا مؤخرّات بعضهم واختلط الدم بالبراز بالقيء ، فيما انتشرت وسط هرج ومرج شباك من سوائل لزجة بيضاء على الأرضيات

والشراشف ، وطرخان كدأبه يأمر العاملين لديه بمعالجتهم بزيت دافىء كان ينتقيه بنفسه ويشرف على إعداده . وفي إحدى المرّات وقف منتشيا ليعلن أنّه رجلهم جميعهم ، فاهتزّ رأس أحدهم وقد فهم ما قاله ، وكانت الرعشة قد أتت قبل ذلك على جسده بالكامل ونفضته نفضاً ، فجعل يحدّق خائر القوى في الفراغ فيما راح صباح يناوله ملابسه قطعة قطعة مهدّئا من روعهِ .

وكانت رومة تعلم أنّ ما كان يدور في تلك الحلقة يستصرخ العقل والطبيعة والدين ، والغريب في الأمر أنّ العُرْف الاجتماعي ، على الرغم من شدّة صرامته وتجاهله للقانون في مفردات كثيرة ، إلاّ أنّه كان يسكت إزاء تلك!! وقد ساء طرخان كثيرا أنّ سعيدا لم يسكت آنذاك إذ منع الصبية من دخول الحلقة وشتت المريدين ، وجنّ وقتذاك جنون طرخان فجعل يراقبه عن بُعْد وكلّ همّه إن لم يظفر بإذلاله فبقتله . وقد بلغت مسامع قيسة ونهاية همهمات هنا وهناك فلبدتا له في رأس الطرف وانهالتا عليه ضربا (بالنعلان) ، والحق يقال إنّه لم يكن يهاب الأنكليز ولا الأتراك من قبلهم ، بل على العكس فكثير منهم من كان يطلب ودّه ورضاه ، ولو كان سعيد قد صادفه شخصيّا لواجهه ، لكنّ رعبه الحقيقي كان قد تجلّى وبأروع صوره من قيسة ونهاية! . ومؤكد أنّ استذكار تلك الواقعة قد جعل الأختين تربطانها بالغلالة التي أسدلت فيما بعد على مصير قريبهن . ولم يمض وقت طويل وجد بعده طرخان مقتولا وبضع رصاصات قد

خرقت رأسه ، كان مطروحا على وجهه ومربوطا بحبل إلى ذيل بغل شوهد وهو يسحله من الاصطبل إلى النهر . وهكذا كفّ صباح عن التحديق في عينيْ الإنكليزي الذي ومكافأة له أومأ إلى تجارة الأخوين شلومو وحنون والتي ظلت تحمل اسميهما زمنا ليس بالقصير .

كان طرخان قناعا احتاجت الفضيلة كلّ رذائله لتشير إلى نفسها ، ورذائله كومة إنسانيات مهدورة ، حطام نفوس وحطام وجوه وأبدان مهانة بالظلام و بالنظر ، بالنطق وبالسمع ، وقد بات هدرها محميّة غزاة وسلاطين عتاة ، والقناع نفسه أُصيب بالتخمة من حياة لم يعد بوسعه تغييرها في مجتمع رفضه كليّة وإلى الأبد . تراه اختار نهاية تهمّش إلى حدّ ما ذلك الرفض وتلقي به عرض الحائط ، ففعل ما يفعله الإنكليزي وهو يجمع اللصّ والقاتل بخطيب الجامع ، والقواد إلى جانب المناضل ، ويحشرهم حشرا في عربة واحدة حين يداهم محلاّت بغداد ودكاكينها ، فدسّ نفسه بينهم نقيضا بين النقائض على طرف معادلة يوصلها توازنها إلى الصفر كقيمة تنشر على جانبها قيما لاحصر لها ، بحسب قوانين الرياضيات والمنطق ، ولتثبت شيئا واحدا أن ليس ثمّة نهاية ، فالنهايات مفتوحة وعلى مجرى من الخسائر ، إذ لم تكن المدينة يوما فاضلة ، إنّها بطون ، وبين بطن وآخر يجدد الزمن بشرته ودجلة والفرات شاهدان . مرّة حين حملا جثث الذين نفقوا بالطاعون إلى إحدى النهايات المحمولة على ذراعيْ الصفر ، ذلك التقعّر المعدني الذي نسمع قرقعة سقوطه من أسفل

الدنيا حتى السماوات ، والأخرى حين وقف دجلة حائلا بين صوبين ومدافع الولاة أحدهم أو جميعهم تضرب الكرخ من جانب الرصافة . وكان الأهالي يحملون صررهم وفيها ما خفّ وزنه وغلا ثمنه ، وهم يهرعون إلى النهر ، مات من مات منهم ، وطفت الصرر على صفحة الماء ، طاف من حولها لصوص راحوا يخوضون في التموّجات أسماكا كبيرة تأكل أسماكا صغيرة ؛ وقد دفعوا في الوحل القوارب نحوها غير آبهين بنيران المدافع وأصواتها ، هلك بعضهم ونجا الآخر فورث وأورث ، وجدّدت المدينة حياتها وراحت توسع الأماكن لبطون انتفخت من جديد كي تلقي بأحمالها ثوّارا وقتلة ، لصوصا وسحرة ، أولياء وطرخانيين ، فلا تفتأ تقدّس حتىّ تعهّر وتعهّر فتقدّس .

بستان هبوب

١

يشغلني هذا الذي يدقّ . . يقطع الجادّة منذ مائة عام وأكثر قادما من مقام للغائب ، عكاز ، يقولون إنّه الزمن وقد اتكأ على ما قبله باتجاه سبّابة برزت من عباءة صوف سوداء تكوّرت حول جسد أدمن عتبة الباب ؛ وقد انطرح بالقرب منه مغزلان أو ثلاثة ، فيما تبرز شفافة يدان من الظلمة الخفيفة في مدخل البيت خلف العتبة تماما وهما تلفان الخيوط المغزولة على حلقة معدنية مجوّفة تدعى(المطوى) ، السبابة كانت لقيسة واليدان لنهاية ، والعتبة لدار قديمة تقع في زقاق وقعت فيه كل تلك المعارك قبل مئة عام وأكثر . لم يبق من المكان سوى بضعة أسماء صارت لعوائل أصبحت فيما بعد عريقة دون أن تُسأل عن بداياتها التي تمّ تجاوزها في زحزحة شملت خرائب اندثرت وأخرى ظهرت لتحلّ محلّها في لعبة ميكانو طويلة وخطرة . ثيمة الخطأ فيها تكمن في أنّ لا راسب لها ، فكلّ تكرار هو جديد ، لكن مجموع التكرارات يهيء لإرث يطول فنحن لا نقول الأشياء نفسها وإذا قلناها فمؤكد ليس بأسلوب محدّد بعينه أو في سياق معمول به . هذا بالضبط ما جعل سارتر وكامو مثلا يخرجان عن سياقات

ايديولوجيات شكلت بدايتيهما كي يمسكا ويمسكا حصرا بتلك السبابة التي برزت من عباءة الصوف السوداء المتكوّرة حول جسد أدمن عتبة الباب . الدار ليست لها ، والعتبة لنحس عجيب غادر عالمها دون أن يترك أثرا لأقدامه أو يلتفت متواريا في بستان هبّت منه وفيه وعليه ظلال كثيرة بين جذوع النخل العملاقة والعتيدة ؛ وهي تهوي بظلالها الثقيلة على سياجه الطينيّ فهوى السياج مرتين ، تُرِكَ في المرّة الثانية مهدوما كي تتسرّب منه الخضرة تحت فضول الاستكشاف أو دوافع الاستحواذ ، فكلّ ما حولها له سلطة ، الماء والعشيرة والشارع الفرعيّ الذي تعبره العربات والبغال والناس والحيوانات السائبة . فضول يفتقر إلى المخيلة مكتنز بالصدام يغرس إشاراته ورموزه في المجهول . وثمّة عداء معه بالفطرة هو الأقرب إلى بقعة الدمّ تلك التي تمشي على قدمين ، وتتسع في الأماكن ذاتها ، فما إن تنطلق صيحة من موضع ما حتى يتحشّد الخلق بالهراوات والفؤوس ، وينتشر أصحاب الخراطيش على السطوح وأعلى المنارات دون أن يفهموا لماذا؟ وليجري الدم مجرى الوقت ومجرى الماء ، ومجريات كثيرة تنال من النفس وتدفعها إلى خانة العماء . وينقسم العماء إلى اثنين وينتشر الاثنان في الجهات ؛ فيتدخّل الوجهاء والأعيان لينقسم الجمع الغفير الملتحم ثانية وثالثة إلى جماعات بأسمائهم ؛ ولتتضح فيما بعد حقيقة أنّ الجماعات إنّما تحيل إلى الأسماء ، والأسماء إلى الجماعات ، ويروي الشيخ شذر

صاحب جدّي والعارف بالأنساب أنّ شيخا جليلا ألف كتاب (كاشف الغطاء) انتسبت عائلته إلى الكتاب وانتسي لقبها الأصلي . وشاءت الأقدار أن يعود الغطاء إلى موضعه ليستر المكشوف وتتحلق من حوله عصبة من (الزكرتية) أي غير المتزوجين بإمرة عباس جاوة ، احترفت القتل والنهب والسلب ، وكان أغلبهم غير معروفي النسب تمكنوا بالقوّة من المال ، وبالمال من الوجاهة ، وبالوجاهة من المصاهرة ، وبالمصاهرة من الأحلاف ، فقويت شوكتهم وذاع صيتهم وجعلوا يتحلقون حول الروضة الحيدرية المطهرة ، تارة تديّنا وتارة وجاهة وهم يحضرون مجالس العلماء . وما ظلّ حجر لم يرموه في ظلمة ولا ظلمة لم يرجموها بحجر ، لم يبق سوى أن يكونوا من آل البيت ، فلبسوا العمائم سودا وصاروا كذلك ، فالزمن (عصملي) وأوّل رأس أطيح به كان رأس الرحيمي بفتوى من ذلك الغطاء ، فلطالما شكتْ الأخوات المخدرات المحصنات في القصر المنيف له حرمانه لهن من الزواج ، تلاه رأس الشقيق الأصغر لكيلدار الصحن الشريف وقد أدمى قلبه مقتل صديق عمره ، قيل إنّه لبد في باب الطوسي(*) خمسة وأربعين يوما بنهاراتها ولياليها علّه يجهز على القاتل ، لكن عبثا خلفه تماما وبمدّ البصر أكبر مقبرة في العالم ، وقد استنفر إثرته ومناصريه سادّا الطريق على المارّة وأصحاب العربات التي تجرّها الأحصنة والبغال ، تأهبّا لاشتباكات حصدت من الجانبين على حدّ سواء ، طار فيها رأسه في خرطوشة انطلقت من إحدى المنارات قاصدة إياه .

وألقي الخبر فجأة في وجه أخيه مثل طائر ميت ، فانتفض الرجل في موضعه وظلّ صامتا شاخصا في وجه محدّثه . وفي المساء زادت حدّة المعارك وارتفع صياح النسوة في البيوت ، ظلت المعارك دائرة أياما وليالي فلا يلبث يخفت أوارها حتى تشتعل من جديد ، وبلغ الأمر مسامع (نابي خانم) التي مافتىء قصّادها يؤمّون منزلها محملين بالهدايا والوشايا ، وهناك طرق ابن القرغيزية طرقته عند ساسون الصراف أمين صندوقها وصندوق الولاية ، ليتلى بعد حين على الملأ فرمان خلع الكيلدار وتنصيب آخر ، فخرج المخلوع من المدينة خروج الحيّ من الحيّ ليحاصرها أربعين يوما ، هلك من هلك في غارات متبادلة ، وتدخلت لديه عشائر عفك وأبي صخير لفكّ الحصار فنزل عند رغبتهم وانسحب إلى الحلة ليموت كمدا بعد عامين ، مخلفا تركة تنازع عليها القاصرون والراشدون من أحفاده عشرات السنين ، امتدّ بمحاذاتها البستان الذي هبت منه وفيه وعليه ظلال كثيرة . ويحكى أنّ رجلا قتل فيه ودفن أسفل نخلة . كبرت النخلة وأثمرت ، وشاءت الأقدار أن يكون صاعود النخل هو ابن القتيل نفسه ، دون أن يعلم أنّ عمّاته النخلات السامقات من دمه ولحمه فعلا وقد شارف آب على الانتهاء وكعادته صاعود النخل وزوج قيسة راح يتسلق النخلة ، إلاّ أنّ خطأ ما تسبّب في سقوطه وارتطام رأسه بحجر ، فسلّم على إثرها الروح تاركا وراءه طفلة حديثة الولادة لطمت امرأة غرّتها وقالت :غرّة شؤم . كبرت غرّة الشؤم تلك وصارت على جانب عظيم

من الجمال تحدّث عنه الداني والقاصي ، حتى بلغ مسامع نائب في البرلمان فزوّجها لقريب له هام بها . ظلّ هو قريب النائب رغم فشل الأخير المنقطع النظير في الوصول إلى كرسي الوزارة ، وظلت هي بنت صاعود النخل الذي سقط من النخلة ومات بحسب تعليقات نسوة (الزكرت) ، المشفوعة بقهقهات ، ولطالما تسبّبن في إيلامها حتى إذا ردّت من حرقة وشعور بالغبن ، رددنها بالضرب وعلى مواضع من جسدها تضطرّ زوجها إلى إفساح الفراش لها والنوم في مكان آخر حتى تتعافى ، وقد أسقطت حملها مرّة ومرّتين فنصحتها القابلة ألاّ تأبه لهن وأن تنام على ظهرها ، لكن كائن النار لم يكن بعيدا راح يتلوّى دخانة سوداء نحيلة تصاعدت من الموقد ، حيث جمعت الحطب في يوم برد وأوقدته ، والجميلة تغفو في حضن زوجها . . يغفوان في عناق ملتهب طويل تمدّدا بعده من تعب غارقين بابتسامات وكركرات ، فيما راحت عيون وآذان تتلصّص من ثقب الباب وهما يركضان إلى ما لا نهاية في البستان ، هي تزداد توهّجا وفتنة فيما تعلن رجولته حضورها قويّا فتيّا ، لا يسمعان لغوا ولا يوقظهما من متعتهما شيء ، ويتوغلان نحو الفسحة الخضراء العميقة في بستان هبوب تنضمّ قامتاهما الفارعتان إلى قامات النخل آخذين في الابتعاد ليس إلى مستقبل بعينه بل نحو ماض سحيق جرفهما في ركاب راحلين رحلوا منذ آلاف السنين ، حيث الأرض كانت ما تزال خاطرة في ذهن ، والشمس نبضة ومضة في الأبدية

تلتقط أولى لحظات الظلام ، حيث دُفن الزوجان قريب النائب وبنت صاعود النخل التي أقلّ ما قيل عنها : غرّتها شؤم وقدمها على عتبة دارهم نحـــس .

(*) موضع في النجف .

٢

أكثر من نصف حياتي وأنا أجمع علامات . أؤمن أنّ أشخاصا التقيتهم إنّما جاءوا من أجل علامة محدّدة بعينها ثمّ مضوا ، وأولي أحلامي اهتماما خاصّا ، فأحلامي علاماتي والعلامات كثرت وتفاقمت الإشارات حتى إنّ جدّتي لأبي ماتت وهي تومىء بإصبعها . ولديّ جراب كبير ملآن : هذه مثلا السمرة الطاعنة ليديْ أختي . وعشرون مفتاحا لعشرين غرفة في بيتنا عثرنا حتى الآن على سبع غرف منها ، بئر في الرحبة الداخلية لبيت جدّي ذلك المخلوع القديم الذي مات كمدا ، وحائط يربو سُمْكهُ على الخمسة وسبعين سنتمترا ، ثم طفلة تشبهني تربّيها امرأة لا تودّني ، أنا أمّ الطفلة التي تشبه المرأة التي تربّي تلك التي تشبهني . وترعة غرقت فيها ولّما أبلغ الرابعة من عمري ، كان اسطيفان واقفا يحدّق بي وأنا أغرق ، نصف وجهه عيون ، ثمّ شجار بالقرب من مقبرة الأرمن مع راعي علامة فارقة ، رأيته بعد بضعة أعوام وهو يتسلمن ويتدوّد ، قاطعاً ساحة لبيع الخردوات باتّجاه مكتب إعلانات يحمل اسم غيوم لم نر له إعلاناً في يوم من الأيام ، سالوفته التي لا تنتهي أنّ الريح تؤرجح يافطته على

واجهة إحدى البنايات ، هناك وجدته بكامل قيافة سلمان داوود(*) فسألته عن شتاء قديم تقطن فيه بدر شخصيّة روايتي المقبلة ، وفاجأني بعكّازين مجيبا بلؤمه المعتاد معي : نحن في الصيف لننتظر الشتاء! . . ترى وأنا الآن في أقصى الجنوب من النصف الجنوبي للكرة الأرضيّة في بيلوتس تحديدا المدينة التي تكاد تسقط في المحيط ، هل سأصل بغداد في الشتاء المقبل؟ هل سأجد حقّا شتاءاً قديما ينتظر؟

[. . . أعيد نصف حياتي إلى الجراب ثانية وأرتب معك أجزاء حياته . في الظلّ الذي سيصاحب السلالة حتى نهايات القرن وُلِد الابن . ابن الغالي وعهدك كما قلتِ . فأسميته عهدي . في سنته الأولى اكتشف لعبة الظلّ والضوء ، مفترشا كفّه البضّة الصغيرة المرصّعة بخمس غمّازات على الأرض ، وقرب يديكِ كأنّها تضحك ، وحين بلغ الرابعة انتزعتِ من يده المرآة . . ضايقتك بقعة الضوء التي راح يطارد بها عينيك أينما التفتِّ ودسستِ بدلا منها صورة أبيه :

- هذا أنت عندما كنت كبيرا !!

- أنا الكبير!

وحين تبعك إلى باب حجرتك أغلقتها في وجهه فراح يصرخ يريد المرآة ، ثمّ انشغل في محاولة للعثور على ملامحه الغائمة في

(*) شاعر نثرنها وقعد على تلّتها له مجموعة (علامتي الفارقة) .

الصـورة وانبطح على بطنه ، تارة ينظر إليـهـا وتارة إليك من أسـفل البـاب ، رآك وأنت تشـعلين الشـمـعـة وسـمـعك وأنت تبكين ، عـندئذ اعتـدل في جلسـته محـتارا وقد اندسّ طرف دشـداشـته المقلمـة على العتبة من تحت الباب فلمحتها وقلت :

– اذهب إلى جدّة قيسة تعطيك (حنّونة) حارّة من التنّور .

فلم يجب وهالكِ صـمـتـه . هالـك بكاؤه الصـامت وأنت تفـتـحين الباب فحملته إلى صدرك ، قبّلته وربّتِ على ظهره حتى غفا . كـانت الصورة قد تجعّدتْ تماما في يده وهو يضغط عليها بقوّة ، رافضا أن يفتح أصابعه المضمومة عليها حتى وهو نائم .

الصورة في يد عهدي واليابسة موجة حجريّة هائلة تلطم وجه الماء على شواطئ الجنوب تركض ، مستقبلة آخر العائدين من سمربور وهم يرحّلون إلى بغـداد ثمّ كلّ إلى مـدينتـه ، فـخـرجت مع من خـرجـوا متسربلة بثيابك العريضة في زقاق نوافذهُ مزجّجة بالأزرق والبرتقالي ، عهـدك على كتفك وأنت تستذكـرين الوجوه العـائدة . قيسـة ونهـاية كـانتا هناك أيضـا تبكيـان تارة ، وتارة تضـحكان مهلّلتين تهنآن الأهالي وقد أذكت نار الحرقة والوحشة قلبك من جديد ، وحين عادت النسوة إلى البيت القديم عاد معهن كربهن ورحن ينحن ويندبن .

وانحدرت دمعتان على وجنتي كرامة فمسحهما عهدي براحته الصغيرة ؛ فما كان الطفل ليحتمل رؤيتها تبكي فبكى وضمّته إلى صدرها وجعلت تربّت له ، ثمّ انفرط من بين يديها وركض في الحوش

الواسع باتجاه الباب الخشبيّ الكبير ليتعلق بمزلاجه متأرجحا ، فيما نهضت تجمع ملابسه من على حبل الغسيل وقد توقفت لهنيهة تجفف دموعها ، ثمّ جعلت ترتب الملابس وتلفّ حذاءه الجديد بكيس ورقي أسمر ملتفتة صوب الباب تناديه ؛ فلم يجب فركضت ناحيته إلى مدخل صغير . . لم يكن موجودا فيه ، ثمّ إلى الزقاق . . ليس هناك ، وهرعت إلى الأزقة دخلتها زقاقا زقاقا تسأل لكن بلا جدوى ، فطار صوابها وقيسة ونهاية تطلاّن على غرف المنزل ، فالحمّام فالسلّم ثمّ إلى السطح ، وراحت قيسة تتعوّذ بالرحمن وتقرأ القرآن وتسبّح التسابيح فيما نهاية تردّد :

- خطف الخضر . . يارحمن يارحيم

وانقضى زهاء الساعة وعهدي مختفٍ والمرأتان تولولان ، ثم فجأة انسحب من تحت السرير ببطء وحذر شديدين ؛ كمن يحمل أوانيَ زجاجية يخاف عليها من الكسر ، وفي جيبه وبين يديه عدد من الخنافس والدعاسيق والعناكب فصاحت قيسة متفاجئة :

- (هاي شنو)؟

- (شفتِ بالله) ردّت نهاية .

- (دادة ! حافر أساسات الحيطان!)

- الأساسات أصلا محفورة من الرطوبة

قالت قيسة وقد أمسكت به تضربه على مؤخّرته وهي تردّد :

- الله وحده العالم ما الذي حلّ بكرامة الآن

ودخلت كرامة على صوت بكائه منهارة القوى لاهثة :

– عهدي لو فعلتها ثانية أموت! أموت هل تسمع؟

فسكت وضمّ رأسها إلى صدره بيده الصغيرة ، يمسح بطريقتها على شعرها فيما يده الأخرى تعتصر دعسوقة ، واحتضنته بقوة وقد وقع نظرها على تلك الحشرة المسكينة المخنوقة في يده فصاحت :

– ماهذه؟ ارمها . ارمها .

وقادته بعد ذلك إلى صنبور الماء قرب شجيرات الآس وغسلت له وجهه ويديه ورجليه ، ثمّ تركته يخوض بركة الماء من تحته كما كان أبوه يفعل تماما ، حلّقت عيناها فوق موقع السجّادة الأثيرة لديها ثمّ إلى السلّم ، سمعت وقع أقدامه وهو يتسلّق درجاته ، صرير باب غرفته حين ينفتح ، سريره وهو يلقي بجسده متقلبا على الفراش ثمّ شخيره . . فتمتمت : طالت نومتك سعيد!

واعترضت قيسة على بقع الطين التي خلفها عهدي على الطابوق (الفرشي) الأصفر للحوش ، واستدركت كرامة قائلة :

– دعيه على راحته رجاءً .

– (وراحتنه يمه!!) . . انظري إلى الطين

– طينه ورد .

– ما شاء الله!! إن لم يفسده تدليلك له فهذه (شيبتي) عندئذ!

لم تردّ كرامة وانشغلت تعدّ الغداء ، ثمّ أشارت للمرأتين إلى حيث مدّت سفرة الطعام فاعتذرت قيسة لأنها تشعر ببعض التوعّك

وسألتها كرامة بقلق :

– لماذا ممّ تشكين؟

– بسبب حلاوة الموتى . كم مرّة أقول لك لاتأخذين ثوابات الموتى ، موجهة الكلام إلى نهاية .

– خطيّة رومة أمها ماتت ، ووزّعت (حلاوة) على روحها ، هل أطردها؟

– تدرين أنّي أوسوس من (حلاوة) الموتى وأمرض .

– ولماذا تأكلينها؟ها . . ؟لماذا لا تمرضين من خبز الرقاق ال بالسطوح؟

– أية سطوح هذه؟

واعتدلت قيسة قويّة لا ألم بها ولا توعّك! تحاجج وتتوعّد وترفع يدا وتخفض الأخرى ، وتشير بإصبع وتعدّ ببقيّة الأصابع محاسنها ومساوئ نهاية وبقين على تلك الحال حتى برد الطعام ونهاية لا تسكت بالطبع تردّ هي الأخرى ويتصعّد الموقف وتتقارب الأصوات وتستطيل الوجوه وتتدبّب الشفاه كالمناقير ، وينبت الريش وهما تتقافزان من أريكة إلى أخرى ، ومن الغرفة إلى الحوش ، ومن الحوش إلى الغرفة ، تتناقران كدجاجتين رشيقتين ، وكرامة تراقب الموقف وتحاول تهدأتهما ، لكن عبثا فانهمكت تطعم عهدي الذي انتشرت ضحكاته في الأرجاء مثل ينبوع ، وهي تروي له القصص قصّة بعد أخرى ريثما تنتهي من إطعامه ، ثمّ رفعت الصحون مهدّدة بأخذ ابنها

وترك البيت . فسكتتا وكرامة توجّه الكلام إلى نهاية :

– قيسة أكبر منك يجب أن تحترميها .

– نحن توأمان لا هي أكبر ولا أنا أصغر .

– السبب كلّه من رومة (القجمة) .

– لم تعد هناك(قجمة) ، انظري إلى الذهب الذي في يديها وهي تلبس القسطور وتضع الماكياج الطبيعي ،

ثمّ أردفت :

– طبعا زوجها يعمل محاسبا في فرع شلومو ، وياله من محاسب وياله من شلومو!

– ذكّرتيني . في ذمّتي عشرون روبية لجماعة حنون منذ حملة عاكف(*) .

قالت قيسة ثمّ أكملت مهمومة :

– وحده العالم كم بلغن اليوم ثمانين . . تسعين . . !

وخفت صوتها ثمّ سكتت واجمة تفكر وقد التفّت متكوّرة بعباءتها ، فيما راحت كرامة تهدهد للطفل في حجرها وهو يغفو . .

(*) ضابط تركي واجه الإنكليز في العشرينات ، محاولا استرداد السيطرة على العراق وباءت محاولته بالفشل .

٣

– غدا سنزور قبر أمك زينادين .

– ولماذا هي في القبر؟

–لأنّ الله أراد ذلك .

– ولماذا أراد الله ذلك؟

سأل عهدي وهو يقفز على مربعات الطابوق الفرشي ممسكا بإحدى يديها ، ثمّ توقف عن القفز مفلتا يدها لينسحب مختفيا تحت سريره برهة ، ليظهر بعد قليل وهو يسحل صندوقا معدنيّا صغيرا جعل يقرقع ، وكان قد جمع فيه أنواعا من الفراشات والدعاسيق وغمديّات مختلفة الألوان سوداء وبنيّة وخضراء معتمة ، فوضع الصندوق تحت إبطه كعادته حين يخرج معها ممسكا يدها بيده الأخرى .

– وسنقرأ الفاتحة على روحها . قالت .

– وأين روحها؟

– روحها فوق عند الله وجسمها تحت في داخل القبر .

– روحها فوق وجسمها تحت ، أين صورتي عندما كنت كبيرا ، سأعطيها لها ها . . رأيتك من أسفل الباب وأنت تشعلين الشمعة

وتبكين . . لماذا؟ ها . .

-لأنك لا تسمع الكلام .

- سأسمعه . لاتبكي . . ها .

- حسنا عندما أقرأ الفاتحة تردّد من ورائي كلمة كلمة ولا تقاطعني . . ها!

فحرّك رأسه الجميل ثلاث أو أربع مرات مجيبا بنعم ثمّ سأل :

- وهل تسمعنا؟

- ربما ، . .

- لا . . تسمعنا! ها؟

- حسنا تسمعنا .

تعلم كرامة أنّ ذهابها محنة وإحراج كبير لها أمام أهل زينادين ، لكنها رأت أن تأخذ الولد إلى حيث ترقد أمّه وليتذكر ذلك عندما يكبر ، قالت في نفسها ، ولتجابه شعورا لازمها منذ ولادته ، ربما تكون قد ظلمت المرأة أو ظلمت أسرتها حين انتزعته في تلك الليلة ، مقطعة كلّ سبل الاتصال الممكنة بهم ، وإن كانت تظنّ أنّ ما فعلته هو الصواب رغم قسوة ما أقدمت عليه في حينها ، وهكذا أعدّت متاعا وركبت بصحبته درب السلامة ، تفيض نفسها بالهواجس حتى إنّها في لحظة من اللحظات كادت أن ترجع ، مخافة أن يأخذوه منها وراحت تطمئن نفسها أنه في حال تحقق مخاوفها فستستعين بشمّر ، وما إن وصلت إليهم حتى بدّد كرمهم وحسن استقبالهم لها كلّ

مخاوفها . وعند المساء صرّ باب غرفة الضيوف وتقدّمت عكاز من خشب البلوط ، ترافقها حشرجات متكررة مفتعلة كدأب كلّ أهالينا عند الاستئذان قبل الدخول . وظهر الشايب وقد أحنت السنون ظهره تماما وبرزت حدبته حتى إنّها توازت مع رأسه فجفل الصبيّ وجذبته كرامة إليها مهدّأة ، وجاهدت كي تخفي أسباب فزعه ، لكنّ الشايب وقد كفّ بصره لم يلحظ شيئا ، وكان زاد يومه بل كلّ أيامه الباقية أنّه سمع صوت ابن زينادين ولو كان فزعا . ثمّ أخرج من جيبه الجانبيّ الطويل باقة ريواس(*) وقال له :

– خذ لا تخف وقصّ عليه قصة الريواسة :كان يا ما كان في الشتاء الذي مضى ، والذي قبله ، وقبل الذي قبله وكلّ شتاء ريواسة صغيرة نبتت للتوّ ، وهي عادة تنبت في الثلج على سفح الجبل فأحبّها الثلج وسألها :

– هل تحبينني ياريواسة؟

– طبعا طبعا .

فخجل الثلج وساحت منه قطرة ، نزلت وفاضت حول الريواسة فبان عودها قليلا وقد جعلت تتمايل فأردف :

– إذاً متى نتزوّج؟

– عندما تجلب لي مهري .

(*) الريواس نبتة جبلية طعمها حامض تنبت في الثلج .

- ومن أين أجلب لك مهرك؟

- من النهر!

ومشى الثلج يدفع صخوره الثلجية أمامه متألما ، ثم بدأ المسكين يذوب خلالها تدريجيّا حتى ساح تماما ، وسال في ماء النهر مكسور الفؤاد والريواسة تضحك وتقول له :

- يا ثلج يا غبي مع السلامة ! أنا أحبّ الربيع .

ثمّ جاء الربيع وصعد عهدي إليها فقالت له :

- لا لا تقطفني سيأتي شقيقي الذئب ويأكلك!

فقال لها عهدي :

- بل أقطفك وآكلك هكذا!!

كان الصبيّ يستمع إلى الحكاية مشدوها ، بل وحتى كرامة بدا عليها الأسى متعاطفة مع الثلج ، ثمّ ضحك الجميع ونثّوا الملح على الريواس فاستطعموه وقد انكمشت شفاههم لحموضته .

في صباح اليوم التالي وفي سهل فسيح قد لا يفكر المرء فيه بالموت تناثرت قبور قليلة تفصل بينها أعشاب وأدغال صغيرة ، ثمة بضع شجيرات كافور ودفلى غزت مساحة واسعة في الجوار ، وفي أحد تلك القبور تنام زينادين غير محترسة في نومتها ممن حولها . لا وعد للأيام معها ولا ذكريات في ذلك الشقّ البارد المظلم . ومثل ملاك أبيض وقف عهدي من جهة رأسها وقد ارتمى ظله طويلا على قبرها ليحتويه مثل قبر آخر ، ولكنه دافئ امتدّت فيه أوردته الورديّة الدقيقة

الناعمة كالأوتار تعمل عليها الريح ، فيتهدّج صوته وصوت كرامة وهي تقول :

– هذا عهدي . . ابنك يا زينادين .

وتزيد الريح في إعمالها بشدّة على الأوتار محدثة نغما ، صوتا ثالثا ، ربّما هو صوتها ذلك الجبليّ وقد زال فيه الفارق بين الحافات الحادّة للصخور البعيدة الشديدة الانحدار ، والاستسلام الهادئ والصافي لذلك السهل باعثا في اهتزازاته رعشات خفيفة في الأعشاب وشجيرات الكافور ، وصفحات الوحول الصغيرة المنتشرة هنا وهناك ، فقالت كرامة :

– سأقرأ الفاتحة وستردّد من بعدي كما اتفقنا .

وأومأ عهدي برأسه موافقا .

– بسم الله الرحمن الرحيم .

وردّد من بعدها بصوت مرتفع جدا حدّ الصراخ ، مبتلعا مخارج الحروف ثمّ راح يفتح صندوق حشراته وتركها تتحرّك ببطء فوق القبر بسبب حبسها ساعات طويلة في الصندوق ، ثم جعل يحشرها في الثقوب فراشة فراشة ، خنفساءة خنفساءة ، دعسوقة دعسوقة ، وكرامة مستغرقة في تلاوة الفاتحة ، وعندما أفرغ عهدي كلّ محتويات الصندوق في القبر قرفص ساكنا يحدّق من خلال الثقوب في العتم ، وفي نفسه سؤال : متى تمدّ يدها وتأخذ الهديّة؟لقد جمع كلّ هذه الفراشات والدعاسيق والخنفساءات من أجلها!

– صدق الله العظيم . آمين .

– آمين .

ونهض عهدي ليقف بالقرب من الجانب المشمس للحجارة يتأمّل العتم الصامت في الثقوب التي ابتلعت أمّه وفراشاته ودعاسيقه وخنفساءاته وقد أحسّ بالخيبة فقال :

– صخامة !(وكان قد سمع إحداهن تنعت كرامة بهذا النعت في شجار وقع مرّة بين نسوان المحلّة)

فصعقت كرامة : ماذا قلت؟

– أنت كذبت عليّ .

– لاتقل هذا عيب!

– لو كانت أمي هنا لرأيتها . لخرجت . لمدّت يدها وأخذت الهديّة ، أنت تكذبين .

– لاتقل ذلك سأضربك .

– مـــــا . . . صخامة و(نصّ)

وراح يضرب الأرض بقدميه وهو يصرخ باكيا :

– (هسّة هسّة تجيبين كل الفلاشات والدعاسيت والخنفسات من القبر أحسن إلج)

– ش . . ش ش سنجمع غيرها .

ثمّ أمسكت بيده وهو يصرخ ويدقّ على الأرض بأقدامه باكيا ، وكرامة تنظر إليه وقد اعتصر بكاؤه قلبها فاحتضنته ،

- صخامة!

- لماذا تصرّ على هذه الكلمة؟ ها . . سوف أضربك لو كرّرتها هيّا

قل ورائي

- كـ

- كـ

- را

- لا

- مة

- مة

- كرامة

- صخامة!

- هكذا إذن . . حسنا لن أكلمك .

عندئذ تحرّكت شفتاه :

- كـ . . . . حمامة

وضحك فيما ظلّت هي ساكتة تتأمّله متضايقة فعقب :

- فلاشة . . خن . . . فسا

- أش أسكت لا تكمل أنت فاهم! قل آسف . . هيّا

وغصّ الصغير بالضحك وهو يقول : آشف ، فحملته وهي تخربش بأصابعها تسريحته وتقبّلهُ وتشمّ عطره الطفولي ؛ وقد تدلى من يدها الأخرى صندوق حشراته الفارغ .

٤

في المخطوطة هيكل لمبنى يبدو أنه ، وكما تدلّ عليه تخطيطاته الداخلية ، كان فيما مضى مدرسة ، وأغلب الظنّ أنّها هي مدرسة الأليانس التي ورد ذكرها في سجلّ حسابات شلومو وحنون ، فقد كانت تلك المؤسّسة المموّل الرئيس لها وقيل إنّها توسطت لدى مديرها لقبول نسيم ابن صباح ابن عصمت أفندي مع ثلّة قليلة من المسلمين والمسيحيين للدراسة فيها ، رغم أنّها مدرسة خاصّة باليهود ، وقد اتسعت آنذاك دائرة علاقات صباح في السوق ، وصارت له قسمة وطرح من حصص البيع والشراء ، وغدا اسما معروفا يجمع عمولاته من التجار الكبار والصغار . ولفت نشاطه بعض الوجهاء الذين كانوا يواظبون على حضور فعاليات المنتدى الثقافي ؛ فجعل يتحلق من حولهم ، وشيئا فشيئا صار وجها من وجوه ذلك المحفل ، وبلغ نشاطه مبلغا رفيعا أوصله إلى لندن ، فجعل يصطحب معه ولده الذي أتقن اللغتين الإنكليزية والفرنسية ، واجتاز امتحانا للقبول في إحدى الجامعات هناك ليدرس الإدارة العامة ، وليتخصّص فيما بعد بتخطيط المدن . وقد وجد علمه وذكاؤه وثقافته قبولا لدى العديد من أقرانه ؛

فتأثروا به حتى نسي بعضهم أنّه ابن صباح ابن عصمت أفندي . وحدث أن عاد والده من إحدى سفراته ومعه زوجة إنكليزية شوهدت ؛ وهي تضع العباءة على كتفين عاريين ، وتتجوّل مكشوفة الرأس في الأسواق فيما هو ينتظرها في البيت حانقا ، ترنّ في أذنه التعليقات الساخرة التي جعل يسمعه إيّاها المارّة ، وما أن تصل حتى ينهال عليها ضربا وهي لا تفهم لماذا ؟ ألم يطلب منها أن تلبس العباءة؟ ها قد لبستها فعلا فماذا يريد منها؟ وماذا تريد تلك المأ فونة رومة وهي ترابط عند شبّاك غرفتها لتراقبها ، فتغلق هذه بابها لتقطع خطّ النظر عن شباك تلك التي لا تكفّ عن توجيه الأوامر ، والتدقيق على كلّ صغيرة وكبيرة ، وإبداء الملاحظات حول التنظيف أو عمل العجين وغسل الملابس ، بخاصّة وأنّها شاهدتها أكثر من مرّة وهي تجلس إلى طشت الغسيل ؛ وقد فتحت ساقيها المكشوفتين دون حرج أمام الرائح والغادي ، وسط إيماءات وكركرات الصغار ، ثمّ لا تلبث بعد الانتهاء أن تغتسل ، وتنطرح على فراشها عارية تماما يؤارب باب حجرتها جسدها الأبيض الهرم وهي تشخر بخفّة من التعب .

لم تكن رومة لتذكرها في أوقات تناول الطعام ولا تحسب لها حسابا فيما يتعلق بكسوة الصيف والشتاء ، كما أنّها كانت تُستثنى من أيّة مناسبة تخرج فيها العائلة ، ولكي تضمن هذه هدوء بالها بعيدا عن نقنقات تلك وتلميحاتها التي تجاوزت المعقول ؛ فقد جعلت تحمل كومة الملابس إلى بيت عذاب لتغسلها عند حوض توسّط

الحوش حتى ذلك اليوم ، الذي عثرت فيه على قنينة نبيذ ملآنة إلى النصف ومركونة إلى الدرج ، فحملتها وجعلت تشمّها ثمّ لم تلبث أن شربتها دفعة واحدة ، فانتشت وراحت تتجوّل في الحوش وهي تغني وتتمايل على لحن جاز ، وعرف ابن عذاب بالأمر فراح يجلب لها الشراب دون مقابل ، يحرّكه فضوله لرؤية المرأة وهي تسكر . لم يخبر أحدا ولم يحدث بينهما شيء ، بل لم يطل الأمر كثيرا بين تلك الرشفات القليلة من زجاجة عرق الفلة التي دفعها أمامها وتحليقاتها في ذلك الزقاق اللندني الفقير وماخوره البائس ، غير أنّ رائحة جسدها وتلك الأبخرة التي راحت تتصاعد من فمها وأنفها ، ممزوجة بالكحول يعطفها انكسار تائه ومؤلم في نظرة تظافر وبقصد كلّ ما قبلها على إفراغها من كلّ شيء ؛ ألقتها على جسده فجعل هذا يتراجع خائفا فارّا من أمامها لتفرّ هي الأخرى عائدة إلى بلادها ، تاركة أكوام الملابس تتراكم في بيت عذاب على لحن أسطوانة الجاز ، التي ظلت تدور في ذلك الماخور البعيد ، حيث لم يستطع أحد أن يثبت أنّها كانت تعمل فيه أو عادت إليه ، كما ادّعت رومة ، كما أنّ نسيم نفى أن يكون قد صادفها في لندن خلال رحلاته إلى هناك . لكنّ شخصا واحدا افتقدها هو عهدي . فقد كانت لطيفة معه وهي تحدّثه بالإنكليزية ولم يكن يجيد سوى قول good morning good by فتضحك مارّة بيدها على شعره .

وكان نسيم في وقتها قد عرض على كرامة أكثر من مرّة أن يعطي

دروسا في الإنكليزية لعهدي ، الذي ورغم تقدّمه على أقرانه بمادة الرياضيات إلاّ أنّه ظلّ ضعيفا في تلك المادة ، شأنه شأن أكثر الطلبة آنذاك . ربما كان نوعا من ميكانزم الدفاع عن الأنا ضدّ المستعمر ورفض في اللاشعور الجمعي للغته كصيغة من صيغ وجوده . على أيّة حال ترددت كرامة في بادئ الأمر ثمّ رفضت ذلك العرض السخيّ ؛ لأنّها لم تكن تستسيغ أجواء بيت رومة وطبائعهم . ويحكى أنّ نسيم قد تشجّع مرّة وألقى التحية على قيسة ، وكانت قد دخلت إلى الزقاق تهشّ بعكازها الأطفال والذباب ، وتتحرّك ببطء وهي تعشو ، فالتفتت فجأة ناحية نسيم محملقة فيه :

- (منو)؟

- نسيم . نسيم عمّة قيسة

- ابن صباح!

- (بلي عمة)

فردّت محتجّة وقد وضعت يدا فوق يد على مقبض عكازها :

- (آني قيسة بنت هبوب أصير عمتك . . ليش؟)

فاستدار نسيم محرجا يهمّ بالذهاب دون أن ينطق حرفا واحدا ، فصاحت به وهي تقطع عليه الطريق بعكازها لتوقفه :

- (اسأل أبوك شكد صاروا جماعة حنون يطلبوني؟ بعدها عشرين روبية لو أكثر)

- بطرانة . !

- (غلطانة لا مو غلطانة)

- (سقطن الروبيّات حجيّة)

- (خوش يعني سقط دين حنون!)

- (لا كلها تسقط إلاّ دين حنون! . . بيعي البيت أو إرهنيه عند أبويه)

-(إي هاي هيّه . . أمّن البزون شحمة)!!

وراحت تفتح باب البيت بعكازها ببطء ثمّ دخلت وجعلت تدفعه بالعكاز ثانية من ورائها ، وهي تلعن الزمن وحنّون الذي مات وشبع موتا .

ومع اقتراب العام الدراسي الجديد ارتأت كرامة أن تنتقل إلى بغداد لتفتح بيت أبيها الواقع في الكاظميّة ثانية ، بعد أن أغلق طويلا في تلك الدرابين التي قتل فيها الكثير من الهنود الذين استقدمهم الجيش البريطاني معه ، ومرّ فيها رعاة كثر وهم يدفعون أمامهم جواميسهم إلى الناحية الأخرى من الزقاق لينزلوها في النهر . . ، هناك قالت كرامة المدارس أفضل ، كما أنّها لم تنس تلك الفلقة التي تعرّض لها الولد على يد الملاّ بدون سبب بحسب قولها ، وكان ذلك في بداية تعليمه في الكتاتيب . وفيما كانت النسوة الثلاث جالسات حول السماور وقيسة تغزل ونهاية تحضّر القند(*) فهنّ لا يشربن الشاي إلاّ دشلمة(**) ، وكرامة تتململ في جلستها وهي تفتش عن بداية للحديث ، فوجهت السؤال إلى قيسة :

– منذ متى لم تذهبي إلى بغداد؟

– من زمان من أيّام المرحوم . . وتقصد زوجها وأكملت :

رحنا إلى الطابو العام كي نثبت حجّة البيت ، وأتذكر ركبنا (الربل) وعبر بنا الجسر ، وفي الساعة الحادية عشرة تماما تحرّك القطار ويالها من سفرة ، وأتذكر تغدّينا (كباب) ، و(هاي هيّه . . وأبوج الله يرحمه) .

وهنا وجدت كرامة في نفسها الشجاعة لتحدّثها بالأمر وفوجئت المرأتان وراحت (الأستكانات) ترتعش بين أيديهما . فقد خافتا . خافتا من الوحدة بعد أن تعوّدتا عليها وعلى عهدي الذي تصفه قيسة بأنّه النفس الذي يبدأ به الصباح كلّ يوم ، وحملت المسكينة مغزلها بيدها وراحت تفتش عنه فهوّنت عليهما كرامة وهي العالمة بعزّة نفسيهما ، فطلبت وألحّت بطلبها أن تنتقلا معها إلى بغداد . ووجدت قيسة العرض سخيّا جدا لكنّها انكمشت وقالت :

– كرامة! عظم بني آدم ثقيل .

– أرجوكما أنتما الباقيتان من أقرباء سعيد وتعلمان أنّ أعمام الولد مقصّرون بحقّ ابن أخيهم .

فندّت عن شفتي نهاية بضع كلمات هي أمنيات حبيسة رغم بساطتها وسذاجتها ، وعقَّبت :

– (كَولي إي داده!) ونزور الكاظم (فدوة لأسمه) ومقام الخضر (ع) ونركب القطار . . و . .

ثم شردت وأطرقت عيناها وهي تقول :

– وأنا من يدك هذي ليدك تلك ، قولي موتي أموت!

– أقول أسكتي وناوشيني القند!

ردّت قيسة ثم وجّهت الكلام إلى كرامة :

– المدارس هنا مثلها هناك ، هذا ليس عذرا .

وفيما كانت نهاية تمسح بقفا كفّها على أنفها مختنقة بالعبرات ، فهي لم تتزوّج كأختها بل بقيت في بيت أخيها ، وعندما ترمّلت قيسة انتقلت للعيش معها ، وما زالت تدفع بالقند أمام أختها وترمقها بانكسار متمتمة :

– قضيتها (خدّامة أي خدّامة) من بيت الأخ لبيت الأخت .

ثمّ راحت تندب حظها وتولول :

(كلجن يمظلومات للكاظم امشن

ويمّ سيد السادات فكّن حزنجن)

فولولت قيسة وبكت متذكرة سعيد ، مارّة بقائمة موتاها الذين قبله والذين بعده واحدا واحدا ، فرجتها كرامة أن تسكت ، توسلت أن تسكت لأنّها كربت الولد وكان جالسا قربهن يشدّ على براطمه المرتجفة . وظلت قيسة على تلك الحال حتى أرغمت كرامة على التراجع عن قرارها ، فعدلت المرأة عن رأيها ولم تنتقل إلى بغداد .

وتصف النسوان قيسة المشهورة بلسانها السليط في المحلة بأنّها أمّ (دميعة) لرقّة قلبها التي لاتناسب سلاطتها . وكانت الأختان قد

انتقلتا من بيت هبوب للعيش مع كرامة في البيت القديم ، بيت (الحجي) ، والد سعيد ، وقد امتهنتا الغزل حتى صار الناس يلقبونهم ببيت الغزّالة بدلا من بيت (الحجي) . وفيما يحكى أنّ حملدارا كان ينظم سفرات لزيارة العتبات المقدّسة ، وكانت الأختان تتصدّران قائمة الزوّار ، بل لا زيارات تتمّ بدونهما . وفي إحدى المرّات ، وفيما كانت قيسة تحلّ كيسها لتدفع للسائق أجرته ، همست نهاية في أذنها :

– (داده) . . نحن جئنا إلى الدنيا ببطن واحد فلماذا ندفع أجرة اثنين؟!

(*) الأليانس أول مدرسة خاصّة باليهود تأسّست في البصرة عام ١٩٠٣ ثم فتح فرع لها في الحلة عام ١٩٠٧

(*) القند : سكر على شكل مكعبات دأب السلف في العراق على استعماله مع الشاي .

(**) الدشلمة : شرب الشاي بالقند .

ست احترام

١

لم ينس عهدي ذلك اليوم الذي انزلقت فيه فراشاته ودعاسيقه وخنفساءاته في ثقوب قبر والدته وضاعت في العتمة ، وحين كبر راح يصرّ مداعبا كرامة مطالبا إيّاها بإعادتها إليه وإلاّ! . وكان آنذاك متقدّما على أقرانه بالدراسة ومولعا بمادّة الفيزياء وبالبصريّات تحديدا ، واغتبطت كرامة لذلك لكن فرحتها لم تطل ، فقد اكتشف عهدي الكاميرا فترك من أجلها كلّ شيء وصارت الكاميرا عالمه . غير أن خلف شبّاك خشبيّ أخضر بدا ناتئا كأنّه كلّ ماتبقى من زقاق غرق أسفل الشناشيل المتدلّية ، وقد ضيّقت عليه السماء فبدت مثل شريط أزرق راح يتلاعب به الهواء ويطيّره فوق ساقية طويلة ، هي شريط آخر يصبح آسنا في الشتاء إذ تتجمّع مياه الأمطار . وفي أيّام البرد الشديد حين يمتلئ الزقاق بالضباب متكوّما ، كأنّما بقصد على الشباك الأخضر الصغير ، يظهر وجه فتاة سمراء لم يكن يعرف اسمها في بادئ الأمر فأطلق عليها اسم ندى . وظلت تحمل هذا الاسم حتى بعد أن عرف اسمها ، سمراء خجولة تدرس في دار المعلمات الابتدائية وقد تعلق بوجهها الملاصق للنافذة زمنا طويلا ، دون أن

يسمع لها صوتا ، وحين كلمها لأوّل مرّة ردّت وكأنّها تقول :

- كنت انتظرتك!

رسمها ذات مرّة واستغرق ذلك وقتا طويلا ، حتى استخرج وجهها المكنون في ذاكرته ، وحين رأت ندى اللوحة قالت :

-لا تشبهني!

- هل أنت متأكدة؟

وكان مأخوذا بسمرتها ونظرة عينيها ، فحرص أن تكون اللوحة متشكلة من سمرة تنظر نظرتها هي . وهي على حقّ فلو نظر أيّ شخص من معارفها إلى اللوحة لما قال إنّها ندى ؛ لأنّه سينظر إليها من الخارج ، أمّا عهدي فقد غاص في أعماقه ليستخرج تلك الدرّة درّته التي منه ، درّتها التي فيه . وكان قد أطلق على حيطان غرفته واستوديا الخاصّ رسوما عن مياه وآثار أقدام ، وعيونا زيتونيّة رصّعت العتم كأحجار كريمة . هي عيون زينادين كما وصفها له جدّ أمّه ذات يوم . هناك أيضا كانت لوحة قديمة هي إحدى اللوحات الأولى للفنان الألماني بول كلي ؛ وقد توزّع فيها الإنسان على هيئات تتكلم كلٌّ على حدة . وكانت تلك الحجرة إضافة إلى كونها محترفه الفنّي قد شهدت لقاءات كثيرة مع أصدقاء من الطرف وزملاء له في الثانوية التحقوا فيما بعد بدار المعلمين العالية في بغداد ، حيث التقى كاظم حيدر وجميل حمودي ، وذهب معهم في جولات فنيّة في المحافظات عرضوا فيها لوحاتهم وتخطيطاتهم بالاشتراك مع عدد من تلاميذهم ، الذين

أصبحوا فيما بعد روّادا . وكان عهدي شغوفا وبارعا بالتصوير ؛ فرتّب أرشيفا قيّما وجميلا لتلك النشاطات ؛ وقد اعتاد أصدقاؤه السهر عنده كلّ خميس ، وأحيانا يتصعّد الخلاف بين من يختلفون في اتجاهاتهم السياسية حدّ الشجار ، ولم يعد النهر وحده من يقسم المدينة إلى صوبين الكبير والصغير ، ولا النزاعات القبليّة والعشائريّة التي استمرّت حتى نهاية العقد الثاني من القرن وحسب ؛ فقد اختلفوا حتى في تحليلهم لشخصيّة نسيم فنعتوه بشتى النعوت ، والحقيقة أنّه لم يكن كما ظنّوا أو افترضوا بل على العكس كان على المستوى الشخصي لا يتوانى عن تقديم العون لمن يقصده دون تمييز ، رغم ما كان يبدو عليه من أن لاعلاقة له بشيء مما يدور من حوله ، وكان أنيقا محبّا للوجاهة ولا يخلو حديثه من مفردات إنكليزية يعلكها علكا وهو يلفظها ، فكان بذلك يثير حفيظتهم ، فحاصروه ذات مرّة في زاوية في الزقاق وكادوا يلقمونه علقة ساخنة لولا صراخ رومة وتدخّل نسوان الطرف . بعد تلك الواقعة رتّب له والده سفرة إلى لندن فاستقرّ هناك ولم يعد .

هناك وفي الدائرة الثانية من مدينة لندن ، حيث يسكن الأثرياء ، يظهر نسيم بعد عشرات السنين هرِما يجلس في منزله يراقب من على شاشة التلفاز بأمّ عينيه الغائرتين كيف تضرب بغداد ، فيتمتم بروح حياديّة تطلّ على ذكريات ابتعدت كثيرا وما بقي منها امتدّ في حياة لم يعشها ، ينبغي أن تتغيّر قال : سواء بالاحتلال أو بسواه .

٢

عندما ظهرت مصوّرات عهدي لأوّل مرّة كان واضحا أنّه يعرض فيها وجهة نظره الخاصّة به كفنّان ومصوّر ، من خلال كاميرا افترضها متعدّدة الزوايا ، مع أنّ التقنيّة لم تكن آنذاك متطوّرة إلى هذا الحدّ ، لكنّه كان يستوحي أسلوب بيكاسو في الرسم ويطبقه على التصوير مستفيدا من الظلال في تشكيل الجانب غير المرئي في الصورة ، يدعمه بأشياء تكاد تهوي مستحضرا الحركة ذهنيّا . ومع أنّه كان يحاول أن يلمّ كلّ الخيوط المؤلفة للموضوع في مصوّرته ، إلاّ أنّه كان يقول دائما لا يمكن حشر الحياة في صندوق ، الموتى وحدهم يحملون في توابيت ، فيقطع عليه أصدقاؤه الفكرة ، ذلك أنّ ما يتحدّث عنه خاضع للحظة ، للقطة مجرّدة وحياة الناس وحركة المجتمعات وتقدّمها أو تأخرها ، بالتالي ليست لحظة وليست لقطة . وهنا يتأمّل عهدي لوحة ندى ويسأل :

– من هذه المرأة؟

– لا ندري .

– ولن تدروا! علما بأنّ أكثركم قد رآها أو صادفها يوما .

وراح الجميع يتأمل ويتفحّص ويستدعي وجوها وأسماء وقال أحدهم :

– ولنفترض جدلا ذلك فاللوحة تبقى ذاتيّة ، فهي لو لم تكن خاصّة بك وحدك لاكتشفها الجميع ولقالوا : إنّها فلانة .

فابتسم وقال : هذا ماعنيته بالضبط! . . فالحياة هائلة ولا يمكن الإمساك بكلّ ما يمكن أن يتوصّل إليه أو يريده العقل ببساطة .

– ومن قال إنّ العمليّة بسيطة!؟ نحن لا ندّعي الإمساك بها كما تمسك الكاميرا بآلاف اللقطات أو اللحظات بل نقول تهذيبها كحدّ أدنى لكي لاتنمو كيفما اتفق بدائية وطفيليّة .

– أصرّ أنّ الحياة لا تسيّج أو تقولب بفكرة ؛ ولا يمكن حشرها في صندوق .

– ولكنّها سيّجت آلاف السنوات عند شعوب وأقوام تباينوا في معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وبشكل قد لا يخطر ببال .

– ولايخلو من العسف! . . أنظر أنا لا أدعو إلى العبثيّة ، أرجو أن لا أُفهم خطأً ، ما عنيته أن يكون هناك هامش من الحريّة .

– رجاءً . . رجاءً صاح شمران ، وهو شاب قروي قدم من الجنوب ليدرس في بغداد وعقَّب :

– ألا ترون أنّ الحديث عن الحريّة على هذه الشاكلة ترف؟ ترف تجاوز الواقع ونسي الإنكليز . . كلّ الذي لدينا مجتمع زراعي مكبّل بقيم إقطاعيّة وقليل من التجار معظمهم من اليهود والإيرانيين ، والطائفة اليهوديّة تحديدا دولة داخل الدولة .

كان عهدي يقلب الكاميرا بين يديه صامتا منصتا لحديث

صاحبه ، فيما قال آخر :

– والله شـمـران أنت وردتنا ، ثم غنّى ممازحـا (بالك تدوس على الورد وتسوّي خلة) . .

هذا هو شمران ، قال عهدي وأردف : يظلّ ساكتا وعندما يتكلم يسكتنا ، وبهذه المناسبة سأصوّركم .

فاعترض الجميع ، ولسبب أمني بحت فقد خافوا أن تقع صورة تجمعهم بيد وكيل في دائرة الأمن ؛ فيكشف صلاتهم ويتورّطون ، فقال بخبث :

– صورة للذكرى . حسنا إذا كنتم لا تريدون أن تظهر وجوهكم مادمتم خائفين من الحريّة!! إذاً استديروا وأعطوني ظهوركم سأصوّركم من الخلف ، أنا مصرّ ، وغصّ بالضحك .

وبين تعليقات بريئة ومسامير كلاميّة وقهقهات ، استدار رفاقه ووقعت بقعة الضوء على ظهورهم والتقطتهم ، فتذكر البقعة الوحمة على ظهره ، فجعل يتأمّلهم بصمت وهاجس في داخله عرفه من قبل ، كرب يفاجؤه كلّ مرّة لايعرف مصدره ، فوضع الكاميرا على الرفّ وحاول أن يتندّر ، متجنّبا الغمّ الذي ارتسم فجأة على وجهه ، فابتدروه بالسؤال :

– مابك؟

– حين التقطت لكم الصورة ظهرت على ظهوركم بقعة ضوء تـ . . .

فقاطعه الذي كان يغني ضاحكا : وما العيب في أن تكون خلفياتنا تنويرية؟!!

وأضاف شمران : الجمعة سنلتقي في حمام السوق ونحكها حكا (مال يزي قهر) فلا تقلق!

فردّ عليه عهدي بنبرة هادئة : ترى . . ماذا سنجد عندما نحكهـــا؟

قاطعهما الذي كان يمزح قائلا :

– بالتأكيد بقعنا ليست واحدة ، أعتقد أنّها مثل بصمات الأصابع ، فأنا مثلا ستشمّون منها رائحة عرق ونسوان ، وفي بقعة شمران سوف نسمع حكى ماركس وقال لينين ، أمّا أنت فسنجدها مختومة بكتابة مسمارية أوهيروغليفية بوصفك مصوّر عصري وبوصفها صورة ، فتخيّل!

– عصر فيه أيّ فعل هو صورة ، قال عهدي ، كانوا يتفاهمون بالإشارة ؛ لقد كان ذلك العالم بحقّ أشدّ رقيّا ، تخيّل نسبة الاختزال دون إساءة فهم . . أمّا اليوم فإنّك تعيد وتصقل في الكلام (وجيب الـ يفهّم الأغا!) .

عندئذ اعتدل شمران في جلسته محدّقا في عيني صاحبه ، واستطرد كما لو كان في اجتماع حزبي :

– أقول شيئا آخر لن يكون بعيدا عن المجتمع الزراعي أو مجتمع الصورة مجازا حيث كانت تلك السيّدة البدينة أمّنا تنجب البشر ،

وكان الرجل رقيقا تملكه وتتسيّد عليه ، حتى عرف أنّ الإنتاج قوّة ، فاختبر قوّة عضلاته في الصيد والغزو ، وراح يداهن أمّنا ويساوم شبقها ، ذلك الشبق كان صورة قديمة للسلطة . . ، فضحك صاحبهما عند هذه الفقرة وقاطعهما ثانية :

– يوم الـ لك شمران ، وغصّ ضاحكا فيما استمرّ شمران دون أن يعير تعليقات صاحبه أيّ التفاتة مردفا :

–وإذن . . هل ترى؟ حكّ الصور يا عهدي تجد أنّها نسخ عن سابقتها ، وهاك مثلا في مجتمعنا اليوم عندما نحكّ الرأسمالي ، هذا الذي مازال يافعا ، يطلع الإقطاعي ، وعندما نحكّ الإقطاعي يطلع الإنكليزي ، وعندما نحك الإنكليزي يطلع رجل أبيض تقاتل مع بيض مثله ، وفرض على المستضعفين في العالم دفع الثمن! فردّ عهدي بانفعال مكتوم :

– شمران هناك شيء . . حرف (جوّايّ) . .

ثم نقر بطرف إصبعه على صدره وأردف :

– هنا . . لا أقدر أن ألتقطه . . يصعب معه تثبيت الكاميرا .

٣

[تماما كما جاء في رسالة الطير(*) «دسّته العيون بمكر في الكلام» ، فلم يمت كما تنبّأت البقعة بل كما وضعتهِ في الذاكرة وبقيتِ حيّة من أجله . رأيتهِ وهو يهرم حزنا ، كان له أبلغ الأثر في حياته ، حين دخلتِ حجرته وجدتهِ يعلق صورة شمران إلى جانب الصورة المأخوذة لأصدقائه ؛ وقد استداروا جميعا فيها ومشوا منهمكين في دردشة يوم خميس ؛ فلم يسمعوه وهو يصرخ وينحب ، واستغرق متعثّرا بأصابع الشيخ شذر ، الذي راح يتلمّس تلك الحيطان الـ يربو سمكها على الخمسة وسبعين سنتمترا وهو يقول : سأبدأ من الثمرة . ثمّ تحسّس بباطن الكفّ باطن قدمه ليعرف أيّ مبلغ بلغه هذا الشاب وأين؟

في شارع الرشيد ، كما يبدو واضحا في الصورة ، حيث وقف كانون باردا وبرد بغداد في العظم ، وفي زقاق نحيل اندفعت بطون جدرانه إلى الخارج ، فضيّقت على المارّة فيه ؛ وقد جلست على

(*) عن نصّ للشاعر جبار الكواز .

عتبات الأبواب نسوة لا يسلم من ألسنتهن الرائح والغادي ، حتى مجاز قصير تتصدّره بوابة خشبية عريضة مرصّعة بمسامير ، طرق عهدي عليها بمطرقتها النحاسية الثقيلة طرقتين وثلاثاً ، ففتحت له صاحبة النزل ، أرملة تميل إلى البدانة ، وصاحبة صوت رخيم واسمها ناهدة ، ويسمّيها الناس أم غايب ، وينديها شمران ست احترام ، قيل إنّها مسيحية فرّت من أهلها مع رجل مسلم أحبّته وتزوّجت منه ، ثم مات هذا الرجل مخلّفا لها منزلا كبيرا حوّلته إلى نَزْل استأجرت غرفهُ عوائل فقيرة وطلاب مثل شمران . البعض نفى أن تكون مسيحية وادّعى أنّ الأتراك اختطفوها وهي صغيرة ، ثمّ اشتراها مسنّ ثري مات وترك لها هذا النزل . والمفارقة أنّها تعلم بكلّ تلك الأقاويل ولكنها لم تفكر يوما بالردّ . وفي الشتاء كانت تشاهد ملتفّة بشال صوف أزرق ذي مربّعات واسعة رقيقة ، وهي تستدير باتجاه منقلة تهدهد نارها ، حتى إذا أجمرت حملت المنقلة إلى حجرة شمران ، وقد أعدّت الشاي المهيّل له ولضيفه ؛ فتبدأ بسكب الشاي فيما شمران يطلب منها بين غصّة وأخرى في نوبات سعال متكرّرة ، متوسلا أن تغني فتستجيب بطيب خاطر فيعقب بعد أن تنتهي :

– أين عنك الإذاعة والله لو دخلتها لكان لك شأن .

بعد بضعة أسابيع أصبح شمران طريح الفراش لا يقوى على الوقوف ، وله توق غير عادي لثمرة النارنج ، وست احترام بالقرب منه تقشّر النارنج وهي تغني والدمعة تخنقها ، قال الأطباء إنّ السلّ قد

تمكن منه ولا طائل من العــلاج ، لكنهــا أصــرّت على نقله إلى القسطخانة علّه يلقى علاجا ، وليلتها كفّ شمران عن تقبّل العصير وراح السـائل ينسكب من زاوية فـمـه ؛ وقـد تشنّج صـدره وبانت عظامه ، فيـمـا جحظت عيناه من شـدّة السعال وسكنتا لا إطراقة فيهما ، والمرأة تحاول إيقاظه بغناء فاتر ودموع ونارنج ملأت رائحته الحجرة ، وانتشرت في الرواق ممتزجة برائحة أقلام رصاص تفوح من حقائب مدرسية مبتلة بالمطر ، ومركونة إلى حائط إحدى الحجرات في الباحة .

ولا شك أنّ تلك الطيور التي تحلق وطيئا قد عرفت ذلك الزقاق من قبل تحديدا حين أطلّ شمران وعهدي مرّة من إحدى الشرفات ؛ ليصوّرا لقطات نادرة وأثيرة لتلك الجموع المتظاهرة وهي تجتاز جامع الحيدرخانة ومقهى الزهاوي ، باتجاه ساحة الملك فيصل الثاني ، فيما سلاح الجوّ البريطاني يغير عليهم ؛ فيتساقط العشرات تحت زخّات الرصاص ؛ وقد تجاوزت الطيور الجثامين المحمولة على الأكتاف ، بعد أن تحسّست الوجوه ومدّت أجنحتها مثل الأكفّ أسفل مجرى النفس ، أسفله تماما ، وقد دوّى صوت الجواهري مكلوما في الحضرة الكيلانية وهو ينشد :أخي جعفر ، وبكى جعفر الخليلي(*) في محلّ الساعاتي ناجي جواد ، المقابل آنذاك لساحة تلك الوثبة الباسلة .

(*) قاص وصاحب مجلة الهاتف التي كانت تصدر في الثلاثينات والأربعينات ؛ وقد ورد ذلك في السيرة الذاتية للأستاذ ناجي جواد .

٤

في الزرقة البعيدة الشاحبة بضع غمامات تدفعها ريح خفيفة ، فيما الشجيرات التي وسط الحوش قرب صنبور الماء ترتعش على أهبة الخريف ، ونهاية منحنية تكنس البرّاني ، وقد وصل أعمام عهدي للتوّ في زيارة مفاجئة ، فركنت المكنسة إلى زاوية في الجدار ودخلت مسرعة لتعلم كرامة بمجيئهم . كانت قيسة تلفّ الخيط على المغزل وتبلل طرف إصبعها بشفتيها ، ثمّ تمسح به على الخيط وتعاود سحبه باتجاهها لتعيد لفّه وهي تتمتم :

- (وصلوا العمام) وأردفت : (يابعد عمامي)!!

فرجتها كرامة أن تسكت وأن تستقبلهم جيدا لتفهم الذي حدا بهم بعد كلّ تلك السنوات ، لكن قيسة التي لا تستطيع مسك لسانها قالت معقّبة :

- (شلون عرفتوا البيت؟ منو دلاّكم؟)

فغمغم الأعمام متجاهلين تلميحات العجوز وهم يدخلون إلى غرفة البرّاني ، ودارت عليهم استكانات الشاي ، وبعد المرحبا والله بالخير واختناق فضاء الغرفة بدخان سجائرهم تنهنه كبيرهم مستهلاّ

الحديث وهو يلتفت إلى كرامة :

– الله حقّ . وكسر بجمع نحن نريد حصصنا في البيوت والدكاكين .

– بالنسبة لهذا البيت أنتم بعتم ونحن اشترينا .

– موافقون وبالنسبة للبستان؟

وهنا اعترضت قيسة ودقّت على الأرض بعكازها بقوة قائلة :

– البستان لبيت هبوب ، وأنا وأختي متنازلتان عن حصصنا لهذا (الشبيّب) مشيرة الى عهدي .

– ولكن . . حسنا (بامتعاض) أنتم تعلمون أنّ سعيد توفي قبل (الحجي) فقاطعت كرامة بحدّة :

– ومن رآه ميتا ؟ من حمل جنازته منكم؟من دفنه؟

فتبادلوا النظرات فيما بينهم وردّ أحدهم :

– إنّه بحكم الميّت .

– وبحكم الحيّ . ردّت كرامة .

– ونحن نتمنى أن يكون أخونا بخير ولكن أين هو؟ . . على أية حال لا نريد أن نخرج عن الموضوع الذي جئنا من أجله ، ليس لسعيد إرث معنا فقد توفي قبل أبينا ، أو لايكفي أنّه كان سببا في موته ومع هذا سكتنا!!

– سكتم!! . . وماذا كنتم ستفعلون؟ تفترضون الحيّ ميتا فترثونه وتحرمون ولده من حقّه .

– القضيّة بسيطة ومربحة لو أنّك تعاونت معنا .

– ماذا؟

– تتذكرين شهدة . . . هه! وتعلمين أنّنا لم نر زينادين ولم تدخل بيتنا قطّ ، ولم نسمع من سعيد عن صلته أو زواجه منها .

وهنا وجّهوا الحديث إلى عهدي الذي كان جالسا يصغي :

– كن ابن شهدة تكن لك الدنيا مالا لاحدود له ، ابق ابن زينادين خبزك كفاف يومك!!

فاهتزّ الابن ورأت كرامة الطفل يلبط بين فخذين في البياض الأخير المنسحب من تلك الليلة الباردة ، رأت بقع الضوء والظلّ والدم وهي تنمو وتتفرّع مثل الأشجار ، ونسيلا طويلا من الفراشات والدعاسيق والخنافس ينفرج ؛ فينهض عهدي واقفا ثمّ يتمشّى ناحية الباب ليفتحه على مصراعيه ويقول بهدوء :

– أخرجوا . فورا .

وخرج الأعمام يلفّون عباءاتهم ويشاميغهم متدافعين مغمغمين متوعّدين ؛ وقد نزلوا باللائمة على كرامة لأنّها لم تحسن تهذيب ابن أخيهم ، ولم تعلمه احترام الكبار ، فلم تسكت المرأة بل شيّعتهم بكلماتها وهي تقول :

– حين ولد قطعت سرّته بيدي ، حسبتها بالأصابع ، أربع أصابع ، ثمّ بترتها ورميتها في الفرات ، وعند شمّر سلّمته لمرضعة قويّة القلب فلا تجرحوه . . إيّاكم . . إيّاكم ، لكنهم قطعوا الرحم إربا إربا

وهم يدورون ويلفّون حول حصص قيسة ونهاية ، تارة مع بيت هبوب وتارة مع صاحب الحقيبة الذي استبدل مهنته من أجل البستان ، وحيث إنّ الشخصيّة داخل الرواية معها مقصّها ولفافاتها ، فمع بعض التعديلات صار اسمه محفوظ صاحب دكان المكان لمعاملات بيع وشراء الأراضي والعقارات . ولكم كان يصعب على الشيخ شذر آنذاك فصل الأسماء عن الألقاب ، والتوغل في ظهور هذه العائلة ، فأسماؤهم أشجار ، وأشجارهم غابات ، وغاباتهم نسب ، ونسبهم محنة ، حتى تولداتهم كانت تأخذ تواريخها وأماكنها في تلك التفاريع أيضا ، فمنهم من كان مولودا في العهد العثماني ومسجّلا في العهد الملكي ، ومنهم من ليس له سجلّ أصلا لا في العثماني ولا في الملكي . وهناك أموات ظلّوا أحياء في دفاتر الدولة ، بل وأحياء ظهروا فيما بعد بأوراق ميتين ، وربّ سائل يسأل لماذا؟

ببساطة شديدة ، الشبّاك الأخضر ظلّ شاهدا على مطموسة أثريّة ، ولو لم تكن تلك الحيطان التي راح يتثاءب عليها ذلك الشبّاك مرنّحا ردفتيه يمينا وشمالا ، عالية ، لما كانت تلك المطموسة لتعلن عن وجودها أو لتذكّر بشهدان ، التي وبقصقصة بعض الزوائد صارت شهدة ، بحسب المقصّ والمشارط واللفافات التي كانت ما تزال حقيبة صاحبها عامرة بها . وماجرى على شهدان جرى على المطموسة ؛ فتحوّلت بين ليلة وضحاها من خرابة إلى بساتين وأسواق وبيوت وأملاك بمدّ البصر ، والخوف كلّ الخوف كان من تلك الخضرة المهرّبة

إلى بستان هبوب ، والتي تشي بنزاع عتيق سوف يفضح ويفكّ ارتباط المطموسة بالنعمة التي أغدقت عليها بقدرة قادر ، بل وسيعيد تركيب النتف والزوائد إلى شهدة ، كاشفا الحجب عن شهدان التي أكلها كائن النار منذ زمن بعيد ، وتركها متفحّمة على درجات سلّم غاصت آثاره ودفنت معالمه ، يهدهد الشبّاك الأخضر من فوقه شبح دخان قديم راح يتلوّى . . ، لذا كان لا بدّ من إيجاد صيغة لإقناع العجوزين ببيع حصّتيهما ، لكن كيف؟ كيف تقتنع قيسة ببيع الفضاء الذي تخطف فيه قدم ذلك النحس العزيز الغريب الأطوار ، الذي لا يترك أثرا ، فما كان منها إلاّ أن غرست في خاصرة تلك الخضرة بابا خشبيّا عتيقا لعلها تسهّل مروره ولتنبئه بأنّ الباب مفتوح له متى ما جاء . . فلا يتأخّر! لكنّ الذي أحال المطموسة إلى ثراء كافر ظلّ واقفا يطرق على الباب الخشبي العتيق دون أن يكلّ أو يملّ . .

٥

الياهو المولود بست أصابع في يده اليمنى ؛ وقد بات معها يشعر بالاغتراب ، فيسرع ليدسّ يده في جيب سترته ، هربا من نظرات المتطفّلين ، وليرتفع طرف كتفه ويغوص عنقه ، فيما تتناثر بضع خصلات خفيفة من شعره على جبينه العريض أكثر مما ينبغي ، قد وصل أخيرا قادما من أثينا . وعلى الرغم من أنّ أصابع يده ستٌّ إلاّ أنّ حظّه كان قليلا في التجارة ، التي بقيت تحمل اسم ذلك اليهودي القديم ، والذي أطفأ التراب عينه الوحيدة منذ زمن بعيد . ومترقبا بحيطة وحذر كما هو دأبه ، دون أن يرفع ذلك من شأن حظه العاثر ؛ وقد نزل في بيت عمّ له اختار أبناؤه الحياة في المهجر ، وبالحيطة والحذر ذاتهما جعل يحدّثه في شؤون حياته ، وعن السفر والتجارة ، وفي أغلب الأوقات كان صباح حاضرا يستمع إلى ما يدور بينهما من أحاديث ، متملقا تارة ومتزلفا في أخرى ، وكلّ همّه أن يقع على سرّ ذلك الأثيني المفلس ، الذي خسر كلّ أمواله في صفقة سفن منخورة باعها له قبارصة وأثينيّون كفّوا عن تجارة الرقيق الأبيض ، وتحوّلوا إلى بيع السفن أو تأجيرها لليهود بأثمان باهظة فجنوا بذلك أرباحا طائلة ،

بالإضافة إلى انتعاش سوق التراخيص والجوازات المزوّرة هناك . ومن مرفأ إلى مرفأ راحت تلك السفن تمرّ بحمولاتها البشرية قادمة من الشمال إلى إيطاليا وإسبانيا ، ثمّ إلى شواطئ الأبيض المتوسّط قاصدة فلسطين . وبقصد أم بغير قصد أيقظت تلك الطرقة أمنيات صباح ؛ فجعلت تحوّم كالأشباح من دكان المكان إلى دفاتر شلومو ، ومن دفاتر شلومو إلى دكان المكان ، ومثل حجر في الظلمة خاب أم أصاب ، أمسك بحزمة أشباحه وأطلقها دفعة واحدة في وجه إلياهو ، فجعل الوسواس الخنّاس يوسوس في أذنه ، فيوسوس هذا بدوره في أذن عمّه حتى أرهقه تماما ، محاولا بيأس انتزاع موافقته على الهجرة وبخاصّة بعد التفجيرات(*) التي حصلت في بغداد ، والتي نالت من يهود عراقيين ، والرجل رافض رفضا قاطعا مجرّد الإصغاء ، معتبرا إيّاها تهويلات ، عندئذ قال له إلياهـــو :

– هل تريد أن تموت؟ ألا تصدّق ما يجري؟

– أنا أصدّق عشرين مفتاحا في الشورجة وتسعة في سوق حنّون .

ردّ بعصبية واستدار يفضي بهمّه إلى صباح ، الذي راح يحلق فوق شواطئ العمارة والبصرة بحثا عن سفن وقوارب تجذيف ، حتى لو كانت منخورة ، تدفع بها رجّات خفيفة في شطّ العرب ، فيما ترسو الفرقاطة الإنكليزية قريبة من الجرف ، وبحارتها يرمون قناني البيرة الفارغة في وسط الماء . وفي تلك الرجّات راح شبح تلك السفن التي

أقلعت ذات يوم متوجّهة إلى سمربور وقد تحشّد على سطحها آلاف من الأسرى يخفق . . . وما زال صباح ينقّل بصره من قارب إلى آخر حتى قطع عليه المشهد صوت الرجل ؛ وقد ارتفع فجأة فكانت فرصة له للمشاركة في الحديث وفي القرار ربّما! . . فجعل ينصحه بالإصغاء لابن أخيه بخاصّة وأنّه عاش سنوات طويلة في أوربا وزار فلسطين أكثر من مرّة ، وعلى هذا الأساس ينبغي الالتفات إلى تقديراته لمجريات الأمور فهو على دراية بحقائق ووقائع كثيرة تتعلق بمستقبل اليهود في المنطقة ، ومن المؤمّل أنّ هجرتهم لن تطول ، فالجيوش العربية ستعيد فلسطين إلى الفلسطينيين ، وكلّ مهاجر إلى موطنه!! وأنّ أملاكه ستكون بالحفظ والصون ، واقترح عليه وعلى يهود آخرين أن يبيعوا ديونهم بربع الفائدة ، فهم أحوج ما يكونون إلى السيولة ، ووجد في نفسه الشجاعة أن يعرض عليهم شراءها . وكانت قوافل الفلسطينيين قد وصلت إلى بغداد للتوّ ، وبدأوا ينزلون في النوادي والمدارس ودور الأوقاف ، وكان رأي الملكة في حينها أن ترفع وكالة الغوث يدها ، فالمملكة أولى بهم ، غير أنّ الوقت لم يمهلها فقد سقط العرش وتركوا على هامش الحياة منسيّين تحت ذريعة ألاّ ينسوا وطنهم .

وهكذا . . ملوما محسورا ، مات ذلك العمّ في صيف ١٩٥٢ في ايران ، فلم يحتمل فكرة خروجه من العراق ، وأحسّ أنّه خُدع حين اجتازت قوافل اليهود المهاجرين الحدود من البصرة إلى عبادان ومن ثمّ

إلى معسكرات تابعة للوكالة اليهوديّة في طهران ، تمهيدا لترحيلهم الى(أرض الميعاد) ، فما عادت دروبهم سرّيّة كما كانت قبيل الحرب العالمية الثانية ، ولا عادوا في حاجة إلى سفن الرقيق الأبيض المنخورة ؛ وقد كفّت أمنيات صباح عن التحليق هناك ، بعد أن حقّق إلياهو مأربه فباع واشترى واشترى وباع ، وهذا يأخذ عمولته في كلّ مرّة دون أن يطلعه على أمانات هنا وهناك ، جعل يلفّ ويدور من حولها فحفظ قسما منها في جيبه عن ظهر قلب ، خوفا عليها من التلف أو الضياع ، ثمّ فرّ من السعادة إلى اسطنبول . هناك صار اسم رومة آرام خانم ولم يعد أنفها مأكولا ، كيف حدث هذا ، كيف عاد أنفها كاملا ، لا أحد يدري .

(*) التفجيرات التي حدثت في بغداد عام ١٩٥١ ، والتي اعترف الموساد بعد خمسة وعشرين عاماً ، بالتخطيط لها وتنفيذها .

أوكـــازاي

١

[. . . آثار الأقدام التي على الحائط لها وقع وأنت تستديرين ، وكلما بدأ الكلام نتلبّس وجها واحدا مجروحا فيك . . . ألهذا كنت توليني ظهرك؟ قيسة ونهاية كبرتا جدا ، ما عادتا تقويان على حمل العكاز ، أحيانا تولولان ، ربما تنحبان بلا دموع ، والأنفاس وحدها تصعد وتهبط مختلطة بحشرجات ، ثمّ لا تلبثان أن تنطرحا على الحصيرة وتغفوان مختلجتين كطفلين حديثي الولادة ، فالشفاه منبعجة إلى داخل الفم وقد خلا نهائيا من الأسنان ، والبصر ضعيف لايكفي حتى لتبيان ملامح القريب ، فكيف بالبعيد ، والذاكرة نهضت وغادرت مكانها منذ زمن وحلّ بدلا منها نشاط دماغي عجيب ، اكتفى بالإشارات وبأفضل حالاته بما تبقى من هلاهيلها ، ورائحة جسم ربما لم يكن لها ، وأنت منهمكة تنشرين الحصران السليماني في الشمس كل يوم لتجفّ مما علق فيها من رطوبة تسرّبت من البئر إلى أرضيّة الغرف والحيطان ، رغم أنّ البئر مردومة بحسب اعتقادي! . . ماعدتُ أرى وجهك ، دائما تستديرين ، تدفعين بطاسة الماء أمام هذه وصحن الغموس مع رغيف قبالة تلك . .

- أين عهدي؟

السؤال الذي هزّك وجعلك تبكين .

- في القاهرة يدرس الكاميرا .

- تقصدين التصوير والأصحّ الفنون البصرية .

- يكتب لي بين الفينة والأخرى ، أوّل مرّة عاد بها إلى البلاد لمحت شيبا خفيفا في فوديه ؛ فأغمضت عيني ودفعت الزمن بقلبي قلتُ : لا تجر أيها الزمن لا تسرع دعه شابا ، ومسحت على رأسه الحبيب لكن قلبي آه منه ظلّ خائفا فدفعته مرّة أخرى بقبضتي . . وأحسّ بي فتشاغلت عن الخوف بأخبار المحلة ، قلت له وهو ينصت مبتسما كعادته :

- ندى تزوّجت رجلا ميسورا .

- الله يسعدها .

- جاءت عدّة مرّات تسأل عنك قبل زواجها .

فواصل الصمت .

- قلت لها لا أدري لماذا تصدّق النسوان الرجال وإنّك مثل أبيك تحب وتظل تحب ثم تتزوّج محنتك!

هزّ رأسه ضاحكا وهو يلوك بطرف لسانه سنّا آلمته ، ثم قال :

- رأيتها حاملا . . . ودّ ! (قالها وابتسم)

- من ودّ هذه؟ أقول لك ندى . . ندى!

- نعم وأنا أتحدّث عنها ومن تحسبين أقصد؟

– الآن ندى صار اسمها ودّا . . بالله عليك ما هو اسمها الحقيقي؟ هل تدري أنّي نسيته!

ولم تتصوّر أنّه وبعد أكثر من خمسة عشر عاما في القاهرة وفي إحدى المقاهي الشعبية في ميدان التحرير ، ستذكره فائزة أحمد بها وهي تغني : (ئالولي هان الودّ عليك) فيغمض عينيه ليتأمّل صورتها المحفورة في ذاكرته ، صورة تلك السمرة التي بقيت تنبض في قلبه إلى النهاية ، وسأل ضاحكا :

– وأنتِ ترى لماذا لم يتغيّر اسمك؟ أليس عجيبا أن تدخل امرأة بيت سعيد وتبقى تتذكر اسمها؟!

– لا تنظر إليّ هكذا ياولد .

وأغرق وجهه بين يديها وقال : ترى أيّ اسم اختاره لك؟ وانتظرت أن يتكلم لكنّه لم يفعل وغيّر دفّة الحديث :

– كيف حال (بيبي) قيسة؟ و(بيبي) نهاية؟

– المسكينتان تنامان طوال الوقت ، فإذا استيقظتا شربتا الشاي وسألتا عن شعيت أي سعيد ، وعن هبوب ، فأقول لهما شيئا ما ، ثمّ تلحّان في السؤال عني وعنك فأهدهدهما أن سيأتيان حالا ، فتسكتان ثمّ تعاودان النوم ؛ فأحنى رأسه أسفا فما عاد بمقدوره مناكدتهما كالسابق ، وسواليفهما صارت بالفعل سواليف .

[. . سنبحث في أيّ اسم في الرواية حتى تلك النهايات المتوترة المشدودة بالحبال ذاتها التي جرت كالنهر فوق الحيطان ، وتدلت طويلا

وهي تلفّ أعناقا في ظلمة شاحبة ، ونهارات حملتها السائمة على ظهورها إلى أجل غير مسمّى امتلأت بمواء القطط المتحشدة في الأزقة ، وعلى الأسيجة بالأسلاك المكهربة ذاتها ، التي انتفضت بين أفخاذ النسوة حيث الذي لاينكتب . . ذلك الأخرس الذي في دواخلنا ، فوتوغراف عن حقائق صغيرة وبيت زجاجي فيه كلّ عوامل الحياة الممكنة وإحساس أليم بالغبن لا يقترح غير المواجهة شكلا للظهور ، رمال حقيقية تنجلي طبقة إثر طبقة ، وصولا إلى مخطوطة ستكتبينها بنفسك ، دفينة مضغوطة على بعض من ثيابه وأوراقه في خرقة ملفوفة على شكل صرّة ، ومن على أعلى سياج في السطح العالي فوق البئر تماما كنت سترمينها ، لكن هذه المرّة لا صياح طائر التطوى فوق ، ولا عين الشمردل التي تحرس تحت ، والبئر مردومة لا تقوى على المضغ والبلع والجارة تختلس أخباره وأغراضه فيما يشتجر تنّورها بكتبه ، فتصنع خبزا على نار ستاندال وتولستوي ولينين وماركس والغزالي وابن عربي ، وكوارث فكرية وأدبية أخرى ، وسمعتِ حديثا هنا وحديثا هناك عن ذلك ففزعتِ . . فتحتِ حائطا بسمك خمسة وسبعين سنتمترا ودفعتِ مكتبته فيه وأنت تقولين : الحشرات نفسها لم تقرب كتبه لكن تلك الجرمة فعلت ، وإلى الآن المكتبة في تلك الحيطان وما زلنا نجلس بجوار بعضنا ، وتستديرين كلما بدأ الكلام فنتلبّس وجها واحدا مجروحا فيك ونحن نراقب معا ذلك الصقر مثلا في التلفزيون ، وهو يحلق في صحراء شاسعة مئة

ميل في الساعة دون أن يصل إلى نقطة بعينها ، فالوصول ليس له سوى معنى واحد : أن لايصل ثانية أو يكفّ عن كونه صقرا . أمّا الألم الذي لايعرف لمن فقد وجد له شكلا بدائيّا في القرحة التي جعلت تأكله من الداخل . .

في ذلك الوقت ، كان قد ترك عمله في شركة إنتاج متواضعة وتفرّغ للصحافة ، عمل مراسلا ومصوّرا في آن واحد . هناك تعرّف بفتاة لبنانية ، كان صوتها جميلا سمعناها مرّة أو مرّتين في المذياع ثم سكتت بعد أن ظهرت فيروز ، وفرض صوتها سطوته على السمع والأفئدة ، وليقترن بعدئذ الصباح به إلى الأبد ، تختلج فيه الأنفاس وتتموّج في عينيّ المتأمّل الرائي الشاعر الفيلسوف المصور المبدع حركة الأرض والحياة . . . فأيّ سكن صوتها هذا؟ وقامة أيّ جوهر فارعة تسكن فيه؟! . ترى ماذا يحدث لو مشى الإنسان بكامل قامة جوهره الفارعة؟ يا إلهي أيّ خوف سيداهم حينذاك عندما تتربّصّنا أزمة الوجود . .

وتزوّج من تلك الفتاة وفي بيروت أنجبت له ولدا أسمته اسطيفان على اسم أبيها ، أسماه هو ذكران ، ونادته كرامة أول مرة عهدي! فعلق ضاحكا :

عهدي الأول ، عهدي الثاني .

٢

سطيفان يركض خلف الملكة النحلة ، ومن ورائها شغالاتها يحملن دنان العسل فيسقط في الترعة وينتشله الأطفال ، بعد عامين ولدت وحدث أن غرقت في الترعة ذاتها بعد ذلك بسنوات ، وانتشلني الأطفال أيضا ، كان سطيفان على مقربة يحدّق بي هادئا ونصف وجهه عيون . سألته مرّة :

– لماذا لم تحاول أن تخرجني مثل الآخرين؟

فقال : لقد رأيت مشهد غرقك ذاك من قبل! فصدمت وتعطلت قواي . .

لم أعر تبريره اهتماما وكنت بحقّ مغتاظة منه .

جدّه الأكبر جدّي . جدّته هي الأخرى جدّتي ، ولو أنّ المرأة لم تكن واحدة تماما ، فجدّته وجدّتي اختلفتا إلى حدّ ما بنظام صوتي عجيب من حيث الصراخ والهمس مع النبر مع النقر ، لكنّ شيئا واحدا كنت على يقين منه أنّها هي التي كانت تقطن في حجرة جدّنا ، والشمعة التي تضيئ أسفل الباب شمعتها هي رغم تأكّدي من أنّه لم يكن موجودا آنذاك ، لكنّ وجوده الذي أعقب كان لحظة

جوهريّة ، ونحن نتحرّش ببيوت النحل ونترك أصابعنا تغوص في أكياس البيوض ، ولم نشعر بالحشرة حتى رأينا الدم يقطر ، والملكة والشغالات من خلفها يعبرن احتفاءاً بالشمس ، وهي تقطع يوما من أيّام بستان هبوب أعشابا طويلة ميتة تعود إلى تلك الخضرة التي غُرِس في خاصرتها باب خشب عتيق انبجست من خلفه بعد حين عين ماء سيّجتْها الطحالب والأسلاك الشائكة ، من حيث وقف ذلك الأفّاق وقد أحال الزمن رأسه الحاسر إلى كرة من زغب أبيض ، ظلّ واقفا خلف الباب مثل فزّاعة . . خيال مآته . . ما يفسّر انحراف الطيور تلك الـ تحلّق وطيئا ، بعيدا عن تلك البقعة بعيدا عن مجرى النفس فتُخطئ الطريق إلى قيسة ونهاية ، لذا عمّرت المرأتان ، عمّرتا طاعنتين في الزمان والمكان ؛ وقد ركب العناد رأسيهما وبقيتا مُعْرِضتيْن عن البيع . ثمّ ظهرت تلك الأعشاب في مفكرة عهدي ؛ وكان قد رسمها بعد أن تعطلت الكاميرا في طريق عودته من أسمرا في واحدة من أهمّ تحقيقاته الصحفيّة ؛ وقد دسّ فيها أجسادا نحيلة تركها تندلع كأوتاد قاحلة السمرة يلفّها الساري وعلى مرمى البصر متحجّرات بشريّة اتكأت إلى نفسها ، على بعضها ، في جفاف شرس يصلب أشعة الشمس ، فتتكسّر بين الأصابع ، فإن هي قبضت عليها فإنّما تقبض على رماد امتدّ من أوغادين على طول ساحل القرن الأفريقي ، حيث وضعت قبائل الحبشات في القرن السابع قبل الميلاد أقدامها عائدة من اليمن لتخرج الفلاشا من أكسوم بعد ألفي عام . . . والقرن كان

كلّه لثور لكن الثور لمن؟!

. . . الآن ، محدّثا نفسه ، كلب الإمبراطور وصوّرته ، ألم تكن تتمنى أن تصوّره وهو يبول في غرف الاستقبال الكبرى؟! ها قد مات الإمبراطور ولم تسنده أميركا كما كان يتوقّع ، بل كما فعل كلبه حين بال على جنرالاته دون أن يفتح أيّ منهم فمه! . . وإذاً . . ماذا بقي؟ أهي أوكازاي . . تلك الخلاسيّة الجميلة من أمّ سوداء وأب أبيض ، نسي وجه المرأة؟ ليس تماماً ! بل على ما أظنّ هي أوكازاي : اسم النيل الأزرق ، . . وليكن . . منذ متى وأنت هنا؟ في أيّة لحظة أنت على قيد الحياة ، وفي أيّة لحظة أنت ميت . القرحة تأكلك من الداخل والأرض ليست ثابتة ، وثمّة حياة بدائيّة تمطّ جسدها الأسمر النحيل أمام همجيّة الكترونية تسحقها كما تسحق الذباب ، وتزيلها كما تزيل البقع . ثم فضّ بعصبيّة رسالة زوجته التي وصلت إليه مع بريد الجريدة ، كاشفا عن فراغ في فكه العلويّ وقد ذبلت شفتاه من التدخين واصفرّت أنامله ، كما احمرّت مقلتاه وانتفخت أوداجه بسبب إفراطه في الكحول : ابنك لايسمع الكلام . فعلق مقهقها :

– ومنذ متى وعائلة سعيد تسمع الكلام؟ هل سمع أبوه أم جدّه أم جدّ جدّه الكلام من قبل؟!

كان باب الغرفة مفتوحا تحرّكه ريح حارة ، وعلى مبعدة وفي مربّع أبيض شرس تحفّه صخور رصاصيّة تنتشر عليها في النهار قطعات من قوّات متعددة الجنسيّة ، وفي الليل حين تخفّ حشودهم وتلمع عيون

الذئاب يلمع تحتها ليل آخر بين الرمل ، نجومه تلك الماسات التي عسكر حولها نصف العالم ، فانفصلت عنه سائلا بشريّا أسود له أقدام تهرول حافية ، قبائل تدفع أمامها أطفالها وبطون نسائها ، خوفا من الذئاب الليلية والنهارية لتختبىء في كوخ نزلت فيه البعثة الصحفية ، التي راحت بدلا من مطاردة الخبر تدفع أجساد الهالكين على نقالات ؛ ثم تدوّن إحصائيات عنهم إلى الأمم المتحدة ، وشيئا فشيئا انسحب أفراد البعثة ، عاد الجميع إلى القاهرة وبقي هو . كانت معه أوكازاي . ليخرج النيل الأزرق من تلك البحيرات طفلا يتلمّس الأجراف ، يصبح جسده فتيّا في الكوخ ، جعلت أوكازاي تفكك خوارزمياته على المائدة ، ثم في السرير والرجل مبهور بعدّاءة الجمال تلك يطفئ المصابيح كلّ ليلة لكنّ ذلك الأبنوس الحالك أزل نار وعين تترقرق ، عين الذئبة الأبنوسيّة تترصّدها عيون القطيع وهو يزحف فرادى فيتسلقها متباريا بالعواء ، هي الحفرة بل هاويتها السحيقة تركته يسقط فيها لاقاع لها ولا قرار ، والغفو لذيذ والصحو مرّ يربطه بحجر ثقيل إلى الواقع ، الواقع إلى قرحته ، وقرحته إلى كرفان الصليب الأحمر الدولي على بعد مئة متر تقريبا من الكوخ . وبعد عدّة لقاءات يخرج الطبيب الفرنسي مصابا بهما . وفي تلك الأجواء نشأت تلك الصداقة . كانت أوكازاي تنظم المائدة وتغسل الأطباق ، ترتب أوراقه وتنقّع فرش الرسم في الزيت ، على أمل أن يبدأ برسمها كما وعد ، لكن الورقة حتى تلك اللحظة فارغة ، وعندما أحسّت

باليأس طلبت أن يصوّرها فطالبها بألاّ تقطع عليه أفكاره ، فسكتت والتصقت خلفه بحافة الكرسي ممتزجة بظله ، لكن فارق العمر كان وتلك الحالة شاسعا بينه وبين ظله الأقرب إلى عمر الطبيب الشاب ، الذي بدأ يقلق كلما تأخرت أو غابت ، فيظلّ متململا في مقعده متلفتا يمينا ويسارا حتى تظهر ، فترتسم على وجهه آنذاك إمارات الارتياح ، وشيئا فشيئا لم يعد قادرا على الابتعاد عنها . قالت له مرّة وهو يراقصها :

– السيد (وتقصد عهدي) أحتاجه .

– ألا تفكرين بحياة أفضل؟ ثمة فرصة إن أردتِ . فكري .

آنذاك أفلتت يديه من حول خصرها واندفعت إلى الخلف ، عيناها الزرقاوان نيل هائل راحت أمواجه تخفق . .

– خائفة . هكذا بدت ، أفضى الطبيب للسيد .

لم يفاجأ عهدي . كان يتوقع . وما كان ينبغي له أن يقضي النهارات تعيسا ، ظله الشابّ يتمدّد في الليل خلف النار الموقدة حتى الصبح ، وقد ألف الذئب الذي يطلّ من التلّة الصخرية وجودَهُ فبديا ذئبين حميمين ، بل ظلّين لذئب واحد! . . هو الأكبر منها بكثير وإن كانت روحُهُ يافعة ، وهي في النهاية ليست المرأة التي له . ليس هو رجلها ، ليس لها . هذه هي الحقيقة التي ينبغي ألاّ يغفلها رغم الطوفان الذي أغرقه به جسدها ، والذي ما زال يتنسمّه ولم يروه بعد ؛ وقد بدأت مشاعره تتعقلن فانقطع عنها وظلّ كذلك أيّاما ، وفي أحد

الأيام استوقفتهُ وكان الشرر يتطاير من عينيها ، عيني عاشقة حقيقية :

– هل تلعب بي؟

– السيد لا يلعب . السيد يرسم .

– هه اللوحة على مسندها فارغة .

– وهل تعتقدين أنّ الفراغ لا يعني شيئا؟

قال ذلك مبتسما ثم أدار كتفيها وعقّب :

– انظري إلى الأمام . المستقبل طبيب فرنسي شاب يقبل عليك سيطلبك للزواج . إقبليه هل فهمتِ؟

– إنّه ليس أنت !

– لاتكوني حمقاء . تزوّجي عاقلا يعود إلى المنزل في ساعات محدّدة ، ويلبي طلباتك وطلبات أبنائك . صدقيني أنت طيبة وتستحقين حياة أفضل لا تفوّتي الفرصة .

– لكن . .

– إقبليه واخرسي .

ثم جلس ، المشهد من خلفه سماء شاحبة بدت شديدة التعرّق ، وبشر بسحنة داكنة يسيلون بامتداد أعالٍ تظهر حافاتها بموازاة الصخور الرصاصية ، لوحة تخفق تتجاوز البياض الفاغر المعلّق على مسنده ، وتبصر كتلك السمرة التي تقطر ملحا كما كان يصفها منذ أكثر من ثلاثين عاما . وفي الكوخ عثر على قميص الفتاة محشورا في خزانة ملابسه فسحبه وجعل يتأمله ثم افترشه على السرير ، وفجأة امتلأ

القميص بقامتها وراحت أصابعها تفكّ أزراره ، فيما تمتدّ أصابع يدها الأخرى نحيلة وطويلة فاقترب منها ، اقترب بثمالة مغمضا عينيه ومتمتما : لا . . لا تصغ إلى هذه الأصابع . لكنه أصغى لهسهسة على الأرض ملتفتا ببطء ناحية الباب . . أهي التي تتقدّم عارية في الظلمة مثل ليل ناحل وطويل حتى صباح لم يصل بعد ، ليته لا يصل ، تمتم في نفسه لكنه وصل أخيرا فصحا من غفوة سرقته ، ليجد اللوحة كما هي فارغة معلقة على مسندها ، وباب الحجرة مازال مفتوحا فارتدى قميصه بعجالة وخرج . المخيّم على حاله وليس في جلبته ما يدلّ على نغم صوتها ، ليست هناك ، كان الطبيب خلف شبّاك غرفته في العيادة ينظر إليه ، ثم انحنى على بضع زجاجات وأشرطة اختبار منهمكا في عمله ثانية ، فاقترب عهدي منه وهو ينظر إليه ، لم يقل الرجلان شيئا ، كانا يعلمان ما يدور في نفس كل منهما ؛ وقد تجاوزا الحرج في تلك المكاشفة الصامتة ، فأومأ عهدي بإصبعه إلى حيث تعنيه ويعنيها . . فردّ الطبيب بحزم : -لا بأس .

ثم انحنى متشاغلا بما لديه .

وإذاَ ، قال عهدي محدّثا نفسه ، ثم دخل إلى كوخه وأسرع يلمّ أوراقهُ ويحزم حقيبته .

الميت الجميل

١

انحنى سطيفان يلتقط ورقة نباتية وجعل ينظر إليها من خلال عدسة مكبّرة ، متخيّلا درجة الذكريات فيها . أجوبة هي أسئلة أخرى تتعلق بالتاريخ الطبيعي وبمراحل تطوّر المجتمعات من همجية إلى بربرية ؛ لتنتهي بالحضارة كحقيقة لاتعدم بدورها تلك الهمجية من أجل الحفاظ على قيافة حديثة!! ، فإذا كان للورقة كلّ هذه الهسهسة ، صوتها الذي يصلنا بريئا تحمله الريح إلينا ونحن مشغولون بحياتنا الخاصّة ، أين حنجرتها إذاً؟ وإذ بلغت الشجرة المبلغ الهائل من التكيّف للبيئة ، أين عقلها الذي كابد بواسطته الإنسان ما كابد في صراعه مع الطبيعة ، حتى تكللت مكابداته بانتصار العقل حدّ الجنون؟ هل هو جزء من منظومة خاصّة بالكائن لها استقلاليتها ، أم إنه مخترق مما حوله ، وصولا إلى الكائنات المجهرية التي تحتويها قطرة الماء مثلا ؟ ثم أمسك بكأس فيها بضع قطرات ، وكم كانت عيناه تبدوان مخيفتين من خلف العدسة وهو يحدّق في القطرة فتساءلت :

– ألهذا كنت تحدّق في الترعة؟

– لقد رأيتك من قبل ألا تصدّقين؟ أعتقد أنه مثلما بوسعنا

تخيّل شكل الحياة القديمة ، من خلال الحفريّات ، بوسعنا تصوّر المستقبل ونحن نرتب في أذهاننا تلك الحيوات البعيدة ، وصولا إلى صور الفكر ومقولات مختلفة عن الزمان والمكان . هل تتذكرين لوحة بول كلي المعلقة في غرفة أبي؟ واستطرد قبل أن أرد ، هي هيئات يتكلم فيها الجبين ، زوايا الفم ، الأنف ، كل على حدة ، ومحفورات ترقص عليها الأصابع كما على البيانو ، لقد كان بول كلي يضع لمساته على التاريخ الطبيعي ، دون أن يعلم ، وربما كان يعلم هذا موضوع آخر ، لكن حتى عدم علمه إذا افترضناه فمحسوب في السياق لصالح التجربة . وفيما هو منهمك يشرح وجهة نظره ، اخترق شعاع من الشمس قطرة الماء متشوّشا في داخلها ، فبدا وكأنّه جنين تكوّر في بطن القطرة ، تتبّعته وأنا أصغي متناولة الكأس من يده ، أقلبها في ماء الترعة الجاري ، والقطرة ما زالت فيها محتفظة بعد بجنينها ، وعينا سطيفان الواسعتان تراقبانها إذ تنزل ببطء حتى مسّت جسد الماء والتحمت به . وقلت :

– نعم أتذكر اللوحة ولكنها ذكرتني بنصّ ظهر في العام ١٩١٩ فكك الإنسان إلى أجزاء ، وكل جزء مشغول بنفسه ، وجلّها تشير الى ضرورة إعادة ترتيب بل إعادة فوضى ؛ لنفض ما أحدثتهُ سابقتها ؛ فالذاكرة مشتتة وقد مزّقتها حرب بانتظار أخرى . ترى من وضعنا في رأسه؟ في ذاكرة من من نحن الآن؟

فضحك وهو يتأمّل الجريان الهادئ للماء وقال : هذا السؤال يحرج

السياسيين ، وليس أمامهم إلاّ أن يقولوا إننا ضدّ المصلحة العليا!!عجبا إن لم تكن المصلحة العليا مصلحتنا نحن الناس . . الشعب ، فمصلحة من هي؟ لقد أسّسوا لانحرافات تطوي الذات على ذاتها ، ومع الجيل الثاني يتحوّل كلّ شيئ إلى نزعات لاشعورية تتكدّس في الأجيال اللاحقة . . هل سمعت من قبل بشيئ اسمه الظلّ الأسود؟ واستطرد غير منتظر الإجابة : هو ما ذكرته بالضبط من نزعات لاشعوريّة له أثره الكبير في الدراسات الإنسانية وفي التاريخ الطبيعي ، حيث تضرب جذوره بعيدا في حضارات وثقافات متنوّعة ومختلفة ، فبعد أن كانت التضحية بالابن أو الابنة تقدمة لإله الخصب مقدّسة في شريعة قبيلة ما هي جريمة في شرائع أخرى ، ومع تطوّر المجتمعات واستقرار المفاهيم استبدل إله الخصب بعقيدة يحارب الإنسان من أجلها ويموت . ثم انحنى متشاغلا بوريقات متناثرة ومياه الترعة تعكس رواق المنزل ، فتبدو وكأنّ رواقا آخر شيّد على مقربة ، وفي الرواقين كان ظلّ كرامة يخطر بتؤدة . تظهر أمّه أيضا وهي تضع فنجان القهوة على المائدة لتسحب نفسا من سيجارتها ، ثم تضع السيجارة لتأخذ رشفة أخرى من القهوة ، عصبيّة المزاج ، فمنذ وصول زوجها وهي لا تكفّ عن الشجار معه ،وكرامة ترجوها أن لاتدفعه إلى الانفعال لأنّ القرحة تؤذيه ، لكن لاطائل من الحديث معها ، إنّها لا تصغي :

– فنّان فاشل .

– مغنية فاشلة .

– لم أفشل . لم يكن هناك من يستطيع استثمار مساحة صوتي كما أتصوّر ، كما أني عندما سمعت فيروز وجدتها رائعة فسكتّ!

– إذاً أسكتي لأني رائع أيضا!

فتناولت العود وبدأت تعزف واحدة من معزوفات منير بشير ، فأحنى زوجها رأسه مصغيا مستحسنا عزفها ، ثم توقفت قليلا لتقول لـــه :

– لست فاشلا يا عهدي

– ولا أنت ياعزيزتي . هيّا استمرّي .

أمام ناظري الشخصيّة التي تركتها عند الترعة عصيّة مركبة ، وأنا أحتاج أن أمسك برأس الخيط كي أبدأ روايتي ؛ وإذ يتصاعد العزف أنضمّ إلى والدته وأغمض عينيّ ، يقطع عليّ اندماجي هسيس قدمين على العشب بين صفّين من أشجار النارنج امتدّا خلف سدرتين أو ثلاث ، ثمّ إلى أرض طينية حرثت وسقيت للتوّ ، والرواق يهبط إلى الأسفل باتجاه القبو . في القبو وفي قاعة كبيرة نسبيا أسّس مختبرا له ، على رفوفه اصطفّت بضع جماجم ظلّ بعضها محتفظا بوقار جليّ ، وآخر اندرس تماما فجعل ينفخ الغبار عنها وينظفها مما علق فيها من أتربة وذكريات وأحلام . تذكرت أني حضرت معه مرّة في أحد المواقع الأثريّة ، عرْضَ جثة ملكية وقد وضعت كامل مصوغاتها الذهبية ومقتنياتها الأخرى إلى جوارها . كان الجسد ملفوفا بكفن أبيض نسج من الحرير الطبيعي ، غير أنّ الطين والحجارة كانا قد حلاّ

محل الأحشاء فبدت العظام ورديّة اللون مثبّتة بقوّة حول حشوة طينيّة متراصّة والهيكل مسجّى بعناية . ياإلهي هيكل عظمي جميل!! كيف يحدث أن تكون الجمجمة جميلة؟! لاشكّ أنّ الكبريت الطبيعي الموجود في التربة قد حصّن العظام من التلف وكساها النحاس بحمرة خفيفة منحتها هذه الجاذبية . ومدّ سطيفان يده إلى الأصابع ، مسحها إصبعا إصبعا ، ثم جعل بعد ذلك يردّ الكفن عليها ببطء وهو يلقي نظرة فاحصة طويلة على الميت الجميل .

وفي القبو جعل ينظر في المجهر إلى خلاصة سكب عليها محلولا هلاميّا وزرقها في أنسجة حيّة ثم عرّض الأنسجة إلى الضوء وعاد وعرّضها إلى الظلمة ، ورأى بأمّ عينيه كيف تحوّرت المادّة الحيّة لتفقد حياتها تدريجيا . وقد سكت في الأعلى صوت العزف وارتفعت أصواتنا ، ونحن نطلب من والدته أن تغني لنا أغنية من أغاني فيروز ، ونردّد معها وقد بدأ صوتها الجميل ينساب مخترقا مياه الترعة قطرة قطرة وهي تدندن :

صارلي شي ميّة سنة مشلوح بهالدكان
زهئت مني الحيطان
ومستحية تؤول . .

كان صوتها قويّا مؤثّرا ، صوت النهر أيضا يصل من بعيد وهو يجرف معه نداءات وهلوسات ، وثمّة كلام يرطن غير مفهوم فليس أقسى من أن يعرف المرء شيئا ولا يستطيع البوح به . البوح ظلّ هناك

غنيمة افترشت أرض المعركة ، ففي حرب سمّيت بالنظيفة كان الموت أقلّ اتساخا من إعلان حياة تمتدّ إلى عذاب غير مسمّى ، تجرجرها فضلات سامّة نشرت ذراتها في الهواء والتراب ، على جدران المباني وبقايا المصفّحات والدروع والسيّارات المدنيّة المنصهرة ، ثمّ سبطانات القذائف النحاسية التي تمّ جليها لاحقا لتصنّع منها لوحات وسلال للمهملات جميلة ، دون إدراك للعواقب . كان العام ١٩٩١ وكانت قطعاتنا العسكريّة قد انسحبت ، فيما راحت الطائرات الأميركية تلقي بأحمالها على البيوت والحقول والأنهار ، وصفّ من ملاقط لاعقة سود تهبط مع الريح وتهطل مطرا أسود أحال الرمال إلى صفحة مفضّضة قاتلة ، وهو ينزع عنها لحم الذاكرة في الظلّ وفي الضوء ، تاركا أشعّتة تضرب وتدمّر كلّ مايصادفها من مادة عضويّة ، مخترقة الأحماض الأمينيّة ألـ(DNA) أو المستقبل كلّه في تلك الظهيرة المشوّشة الشديدة البياض . و قد عاد سطيفان من الحفر الباطن ، شأنه شأن العشرات من الجنود ، سيرا على الأقدام ، وتأكدت أنّه كان تلك الخلاصة ! . . وأنّ ما حدث رسم نهايته المحتومة في الظلمة وكُتب عليه أن يحيا متقلّبا في بقعة الضوء . لم يكتشف أحد تلك الحقيقة حتى أطفأت والدته المصباح في غرفة نومه ، حين ألقى بجسده المجهد على السرير ، مستغرقا في النوم لتجده في اليوم التالي مغمى عليه وقريبا من الموت ، فصرخت المرأة وأحدثت ضجّة كبيرة في المنزل بدلا من ضجّة الفرح التي كانت معدّة لأستقبال خطيبته ، وقد علم أهلها

بالأمر فانسحبوا برفق وأعادوا إليه خاتم الخطوبة . ولم يستطع الأطبّاء تشخيص حالته ، بعضهم عزاها من يأس إلى رهاب العتمة أو أيّ نوع من أنواع الاحتجاز الأخرى ، ثمّ أظهرت التحاليل لاحقا أنّ وظائف الكبد قد ضربت وبدأت المثانة تضعف مع فقدان متقطع للذاكرة ، فسلّموا على أنّها متلازمة من متلازمات الخليج أصيب بها جنود أميركيون بالقدر ذاته . كانت كرامة تلملم نفسها وتجلس متكوّرة في داخل قلبها ، يلهث قلبها على حيطان الغرف بقدمين عاريتين ، وقد باتت الظلمة تثير أعصاب سطيفان ، والضوء الشديد احتمله الآخرون من أجله ، وأعوام التسعينات تمتدّ طويلة تتهدّده فيها قطوعات الكهرباء ، لم يعد يخرج ليلا ، لا أمسيات في حياته على دجلة ، فحياته تتطلب أزلا من ضوء . أتذكر آخر مرّة التقيته كانت بباب المعظم ، سلّمني خلالها مرتبكا رزمة كتب ليمضي مسرعا قبل مغيب الشمس ، ملتحفا ببقعة الضوء وزمنها الخاصّ المحفوظ خارج إمكانية التدخل كالماضي تماما ، وصورة له في الذاكرة ، جزء منها مكسور ، وأظنّني قد أعدت الكسرة إلى موضعها حين اندفعت سيّارة إلى الداخل تحمل كاميرا فيديو ، وفي الحقيقة أنّ حزوز الضوء والظلّ تلك ، قضبان تموّجها بعد سنوات عريشة خضراء في قاعة فندق في نيسان/ ٢٠٠٤ ، وإلى جانبي جلس العجوز بيلي وهو جنرال أمريكي متقاعد خدم في فيتنام ، قال لي متأثرا :

– وحدي يتمّت هناك ما يقرب من المئة وخمسين طفلا ، لذا فأنا

أسافر إليهم سنويا محمّلا بالهدايا لأوزعها على الأيتام !!

فقلت له :

– وهل يعرفون الحقيقة؟وإن عرفوها هل سيقبلون هداياك؟

لم يجب وراحت تغضّنات وجهه تدفع ثقل الإحساس بالندم عن قلبه ، ثمّ انشغل مع آخر قدم معه إلى العراق ليسأل عن مصير ابنته المجندة ذات التسعة عشر ربيعا ، قال وقدّم لي ورقة لأقرأها له فهو أمّي لايعرف القراءة والكتابة واستطرد :

– أنا وأمّها نعمل في حانة ولم نستطع أن نقدّم لها أكثر من لقمة تأكلها وفراشا تنام عليه ، لكننا نحصل على جعة ممتازة بين فينة وأخرى مجانا من المحلّ الذي نعمل فيه . . .

٢

أراني مـازلت أتذكـره بائع المصـقـول . والمصـقـول سكر أبيض مضغوط بالنشا على شكل كرات صغيـرة وقد توزّعت أكيـاسه على رصيف ساحة بالقرب من مبنى الاتصالات اليوم خصّصت فيما بعد لبيع الملابس المستعملة ، وعلى مبعدة بموازاته بائع الخرز والمسبحات رخيصها وثمينها ، وقد تركها تتدلّى من مشجب خشبي . وعلى فرش ساتاني نثر حبات كهرب وعقيق هندي ويماني ، خواتم وسلسلتين أو ثلاثا فضّة ، وجميعها يلمع تحت الشمس المصقول والأحجار ، درّ الفقراء ودرّ الأغنياء . وحين توقفت ذات يوم عنده في رحلة البحث عن مسبحة لأبي سُرِقتْ منه وكنت أنوي إعادتها إلى صندوقه ، حيث جمع فيه قطعا نادرة من مسبحات عقيق وكهرب وعاج وسندلوس وغيرها ، تأمّلت المعلقات على المشجب ولفتت نظري حبّات العقيق المتناثرة فحمل الرجل على راحة يده حبتين وقال :

– إنّها حجر سليماني . هذه فيها قطرة دمّ استحالت إلى خال أسود ، وهذه تحمل أثر قدم بشريّة بطول ملليمترين ولكنّها لجنّيّ عمره خمسمائة عام .

ثم استطرد مروّجا لبضاعته :

– ذات الخال تحمي من القتل ، وتلك التي تحمل أثر القدم تفيد السفر والترحال ، فمن يقتنيها لاتكاد تحط قدمه على أرض حتى يقصد أخــرى .

رحت أقلبهما وكنت وقتذاك مهووسة بفكرة السفر ، فيما جعل الرجل يقلب في فمه بطرف لسانه درّة بيضاء بحجم المصقول ، أخرجها بعد ذلك وبريقها يستغيث استغاثة المسجون ليمسح بثيابه ما علق بها من لعاب ، مردفا :

– وهذه درّة نابي خانم!

كانت تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم فسألت :

– ومن تكون؟

قال : إنّها ابنة والٍ وزوجة والٍ ، وأمّ لوال ، والدرّة تبعد الشرور و . . و . . و .

في الحقيقة لم آبه بفضائل الدرّة التي راح يتحدث عنها ولا بعائديّتها واكتفيت بالعقيقتين . وما إن اقتنيتهما حتى اندلعت حرب الثمانية أعوام بيننا وبين إيران ، وراحت آلة القتل تفتك بلا رحمة ولم يبق شارع ولا زقاق في العراق إلاّ وتعلقت فيه لافتات سود ، وتوقفت معاملات السفر وأغلقت المكاتب رحلاتها برّا وبحرا وجوّا عشرة أعوام ، فتذكرت العقيقتين وقلت :

– الحمد لله . . لم يضحك عليّ بائع الخرز بدرّة نابي خانم زوجة

سليمان الكبير وأمّ سليمان الصغير .

وراحت السنوات تترى ، مات أبي ولم أعثر على المسبحة ، وتلت تلك الحرب حرب ثانية وثالثة ، وقدّر لأحلامنا البسيطة أن تقايض بالتوازن الدولي وبمستقبل الصراعات في المنطقة ، وقد ضرب حصار قاس أطواقه حول بغداد وسائر مدن العراق ، اغتال جيلا من الأطفال ونفق خلاله كتّاب وشعراء وفنانون وعمال وكسبة جوعا ومرضا حتى سقوط بغداد ، حين استبدل الأمريكيون الحادي عشر من سبتمبر بالعشرين من آذار ، وحربهم الباردة المعتقة بأخرى للنقاهة ترينا للإحماء ، اختار أرضنا وإنساننا ، وليعلق الرجل الذي تزوّجت منه في مطلع التسعينيات مع المئات في واحدة من أبشع تقابلات فلسفة الوجود ، راحت تعالج عقمها بعبث يغدر بالحياة ، ويلقي بها إمّا على الحدود وإمّا معصوبة العينين مقيّدة الأيدي مقطوعة الرأس مجهولة الهويّة . وأنا لا أنفكّ أقول : الحمد لله لم يضحك عليّ بائع الخرز بدرّة نابي خانم بنت الوالي وزوجة الوالي وأمُّ الوالي . . . تلك الـ تمنع الشرور ، لكنها لم تستطع منع البلطة من حزّ رقبة ولدها في حِجْرِها ، وقد كفّ ذلك الجورجيّ ، الجدّ الشاسع المترامي الأطراف عن التودّد إليها ، وحمل ساسون الصرّاف حقائبه وفرّ إلى بريطانيا ليؤسس هناك شركة عالمية مازالت تحمل اسمه إلى يومنا هذا .

ثمّ كثر الناشطون في منظمات إنسانية ، بعضها مناهض حقيقة للحرب والبعض الآخر عامل في مجال الإغاثة وحقوق الإنسان التابع

للأمم المتحدة . قِسْم راح يستقصي أحوال ما بعد الحرب ، ويقدّم أطاريحه ودراساته إلى جامعات أو دوائر معنية بشؤون الشرق الأوسط ، ملحقة بوزارات الخارجية التابعة لدولهم أو أجهزة مخابراتهم . من بين ذلك كلّه حطت طائرة كانت تقلّ أنجيلينا جولي وزوجها على الحدود في مخيّم رويشد بالتحديد ، هناك ذرفت الممثلة الشهيرة دموعا بين أطفال المخيّم ، وتجمهر من حولها يافعون وصغار وكبار في السنّ ، محرومون منذ أعوام ، ووقف مؤذن جامع من خلفهم تتمايل لحيته في الهواء وهو يتأمّل تلك الحوريّة التي هبطت عليهم من السماء ؛ وقد هدرت كثرة المواسين حلمهم في النجاة من تلك الصحراء دون إسناد حقيقي ، حتىّ ظهرت سيدة أميركية من أصل فلسطيني ، وقد هالها ما حلّ بشعبها ، ففعلت كما فعلت فيروز في أغنيتها حين مرّت في شوارع القدس العتيقة ، لكن هذه المرّة في شوارع العالم ودكاكينه ، ونجحت تلك السيدة في تمرير القضية إلى البرلمان البرازيلي ، الذي وافق بالإجماع على استقبال من كان في المخيم ، والذين لايتجاوز عددهم المئة وسبع عشرة عائلة ، عجزت واحد وعشرون دولة عربيّة عن السماح لهم بدخول أراضيها .

وقتها كنت على بعد مئة وثلاثين كيلومترا جنوبي بغداد ، في بورسيبا تحديدا ، أهبط من سلّم شبه مطمور لقلعة نمرود وقد تناثرت حولها أكوام من الحجارة المحفورة بالنقش المسماري ، فيما أخ لي يردّ آخر حفنة من التراب على فاطمة مولودته المتوفاة ، في مقبرة اختطها

الناس منذ مئات السنين في منتصف المسافة بين القلعة وصخرة في سرداب قيل اختبأت وراءها غزالة رضع من ثديها إبراهيم الخليل ، حين خبّأته أمّهُ هناك خشية أن يستدلّ عليه النمرود فيقتله كما قتل العشرات من المواليد الذكور ، قبل أن يكبر أحدهم فيقتله ويغتصب ملكه ، كما صوّر له كهنتهُ . وبقصد أم بغير قصد فإنّ اختيار الناس لذلك المكان مقبرة لأطفالهم قد جعل منه شاخص احتجاج ضدّ الظلم إلى الأبد . وواصلت هبوطي وأنا أسمع امرأة تقول : بعد المطر تنفض الأرض قطعا ذهبية ، لذا يلتمّ الناس هنا كلما أمطرت! ، ومتعثرة بالحجارة حتى كتلة صلدة سوداء كبيرة تلتها كتل سود أُخَر هنا ، وهناك قيل إنّها من بقايا حريق اجتاح القلعة ، وقيل إنّها من فعل النار التي أمرها الربّ أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم . وخلف الصخرة وقد شارف الغروب حطّت تلك الصخرة المشعة الحمراء في غمام متناثر أحال السماء إلى مقطع من جناح طائر في صحراء مفتوحة ، امتدّت فوق بيوت بناها أصحابها من حجارة القلعة ذاتها ، فبدت مثل سرب يحلق وطيئا تموّجه كُتابة مسمارية طويلة . أمّا الحفنة التي رُدّتْ على فاطمة فقد تلقّتها الأرض قبل مئة عام فوق وصفة الوصفات تلك ، التي تفيد التخفيّ ، وقد تداعت في غياهب ذلك الجبّ سحيقا في أعماق العراق ، ترى . . ألهذا هو غائب كلّما استدلّوا عليه ومطارَد كلّما أخطأوه؟

بعد أيام عدت إلى بغداد لأجد على مكتبي قصة المحامي القروي

في انتظاري ، وجدت أيضا الصحفيين هناء إبراهيم وديفيد مايكل ستول ، الذي انبرى يحدثني قائلا : وقد غابت الشمس في الأفق والعائلة الصغيرة التي تسكن قرية في ضواحي الرمادي التمّت حول مائدة الإفطار الرمضانية ، كانت أباً لثلاثة أبناء وزوجته وضيوفهما من رجال ونساء وأطفال . إنّه اجتماع الأسرة بعد عناء انتهك بعنف أفزع من فيه ، حين داهم جنود أميركيون حفل الفطور واقتادوا رجال المنزل للتحقيق معهم ، هكذا فُهم الأمر ، لكنهم أبعدوا النساء عن المكان وفصلوهن عن الأطفال ، ثم أخذوا يفتشون المنزل بشراسة ، وقبل مغادرتهم المنزل وضعوا وجوه الرجال المكبلين في الوحل بعد أن طأطأوا رؤوسهم ؛ وقد خلا المنزل من أصحابه ، ومرّة واحدة هبط فريقان من مروحيّة على الجهة المقابلة للمنزل فكسروا الأبواب وبدأوا بتمشيط المكان ، بحثا عن أسلحة أو أشخاص قد يكونون مختبئين في الداخل ، ومثلما يفعلون دائما حين ينعدم لديهم بُعْد النظر إزاء التدابير المتخذة في مثل هذه الغارة ، تقدّم الفريق المهاجم من الجهة الخلفية وأخذ يطلق نيران البنادق . وعند انجلاء الدخان تبيّن له أنّه قتل أربعة من مساعدي الأمريكان ، وجرح عددا آخرا منهم ، وعند وضوح الصورة أكثر تبيّن أن لا أحد في المنزل ، وتبقى القضية قضية قتل بنيران صديقة ، وقد اتضح للجنود الخطأ الفادح الذي وقعوا فيه ، وبدلا من إخلاء القتلى ومعالجة الجرحى ، ولتبرير إخفاقهم قاموا بصبّ جامّ غضبهم على الرجال المكبلين ، فأمطروهم بالرصاص من

الخلف على مرأى ومسمع من النساء والأطفال ، ثم محوا كلّ أثر لمكان كان يقطنه في يوم من الأيام محام ؛ وقد تركوا النار تلتهم المنزل بعد مغادرتهم ، غير أنهم وبعد عشرين دقيقة على انسحابهم من مشهد الجريمة عادوا لإنقاذ الأثر الوحيد الذي نسوه ، والدليل على جريمتهم : جثة المحامي وجثث ضيوفه الرجال .

كم من السهل القول إنّ قتل هؤلاء الرجال العزّل كان مجرّد انتقام لموت عدد من جنود الاحتلال بنيران صديقة . . . . ، حدث في الرمادي في ٢٠٠٣//١١/٢٤ .(*)

كانت تلك شهادة شاهد من أهلها ، ديفيد مايكل ستول ، أميركي الجنسية وابن صاحب بنك ، وصحفي هاوٍ حطموا فيما بعد في موقف مماثل الكاميرا خاصّته ، وصادروا كل ما معه من دسكات وأوراق ، وطلبوا منه العودة إلى الولايات المتحدة الأميركية في ظرف أربع وعشرين ساعة .

بعد أيام كانت ليلة الميلاد . ليلة فارق النوم الأعظمية(*) ، وقد ضعضعت وتخلعت أبواب بيوتها ، وكتبت عليها حروف لم تكن مفهومة في بادي ، وخُمّن القصد منها :نظيف ، آمن ، تمّ تفتيشه CSSE Clean Safe Searche

كان الناس يتوقفون في الشوارع ويبدأون بسرد قصصهم . . . ابني كان نائما في فراشه ، صاحت امرأة ، سحلوه وداسوا رأسه بالبسطال وأخذوه لا أدري إلى أين ؟! . . قال لها أحد الواقفين اذهبي إلى المطار

هناك معسكر اعتقال كبير ، أحد المنازل اعتقلوا كل من فيه وجميعهم من النساء ، ثم تقدّم رجل وناول هناء ورقة وقال : لقد اعتقلوا هؤلاء جميعا . . وكانوا واحدا وأربعين اسما ، فيما وفي موقع آخر ارتفع لغط حول ما حدث في مقهى الرحبي ؛ إذ داهمتها قوات الاحتلال واعتقلت كل من فيها ، وكانوا حوالي ثلاثين رجلا بمن فيهم الرجل الذي يعدّ الشاي وابنه . ولم يمض وقت طويل حتى قدم إلى مركزنا شاب يعمل مترجما لدى الأميركيين في سجن أبي غريب ، لينقل لنا ما كان يدور في السجن ، وأبرز صورا لمشاهد في جهاز الموبايل الخاص به . ثم سمعنا أنّ المترجم قد ترك عمله وسافر ، ثم فاحت فضيحة سجن أبي غريب بعد ذاك بمدّة وجيزة ، وأغلق المركز بذريعة أنّ قوات الاحتلال تحولت إلى متعددة الجنسية!! في الوقت نفسه كانت هناك ضجّة في النيويورك تايمز أحدثها الصحفي سيمور هيرش ، الذي فجّر فضيحة إبادة سكان قرية (مايليه) الشهيرة في فيتنام عام ١٩٦٩ .

وتحدّث هيرش عن شريط فيديو بما نصّه «كان الجنود الأميركيون يلوطون بالأطفال واليافعين ، والكاميرا تقوم بالتصوير وسط صراخهم وبكائهم» .

بعد إغلاق المركز لازمت المنزل عدّة أيام . جلست أرتب ما لديّ من أوراق ومعلومات في غرفتي ، التي نمت وترعرعت فيها نباتات ظلية ؛ إذ تفرّعت اللبلابة على الحائط والتفّ عند الباب ساق الوزة حول جذع ضخم ، واحتلت الجينورا والبيكونيا وجلد النمر أسفل

الشـبـاك بانتظار أن أعـود إلى المخطوطة التي ركنتـهـا منذ أوّل دبابة أميركية شاهدتها تسير في شوارع بغداد ، فاعتكفت في المنزل زهاء الشهر لا أريد رؤية الحقيقة ، لكن الحياة كانت تهتف في داخلي : مازلت حيّة ومعها استفهام كبير ، كيف ومن أين؟ بدوت معه قلقة جدا بشأن توفير احتياجات الأطفال وأنا أتأمل قائمة المصروفات التي عليّ دفعها . أخرجت هناء من حقيبتها ورقة واحدة من فئة المئة دولار هي كل ما كان معها في ذلك الوقت ، اقتسمتها معي وانتهى بي الأمر إلى إعادة النظر في سنوات عملي كمهندسة في أحد مواقع الاتصالات ، فعدت للعمل هناك . في تلك الآناء نمت لدينا حاسة فريدة هي حاسة التفجيرات ؛ فقد أصبح بمقدورنا أن نتوقعها على الخارطة ، ومكنتنا خارطتها من تخمين الجهات المسؤولة . والسؤال الذي كان يطرح نفسه بتلقائية في الشارع : لماذا لا تتفق الأحزاب فيما بينها وتكفينا أذاها؟ وليظهر بين آن وآخر مبعوث رسمي قادما من بلده إلى بلد لا سيادة فيه ولا دولة ، ترافق زيارته سيارة مفخخة أو قذيفة هاون . وبغداد والشعراء والصور حيطان وأكياس بلاستيكية ، وشعب تنبح عليه كلاب مدرّبة ، تقطعها طولا وعرضا أسلاك شائكة ، وتنتشر في ساحاتها تلال من الأزبال . الشوارع حينا حفر وندوب كإصابة تأريخية بالجدري ، وحينا سجّادة نحاسية تلمع فيها عبوات الرصاص الفارغة في ظاهرة سراب نحاسيّ لم يكن سرابا أبدا ؛ وقد جعلت تتوزّع بحساسية مفرطة إزاء ما يتفاضح سرّا وعلنا ،

ولكلّ عنوانه حول معنى أن يكون الأثر حفرة ، جغرافيا حفر تحيلنا صوب محنتين ؛ إحداهما ضمانة للأخرى في وجوب أن نظلّ أحياءاً أو أحياءاً! . وبغداد صور أصدقاء وأقرباء هي ما تبقى في بيوت تحمل ديكوراتها وقطع أثاثها المتروكة ذكرى أهل كانوا في هذا المكان أو ذاك يوما من الأيام . مهجّرون مقتولون مفقودون وبيوت مهدومة أو محروقة ، أطفال مشرّدون يعلكون أصابعهم في الأزقة ، آخرون تعرّفوا على الحشيشة ؛ وقد توزّعوا في الباب الشرقي والبتاوين وأبي نؤاس ، فيما تنتشر جمعيات لرعاية الأيتام باسمهم وباسم المجتمع المدني ؛ لتوظف التبرعات في شركات مقاولات بانتظار الفوز بمناقصة مشروع إعمار ، نكتشف بعد مدّة أنّه كان وهميّا . وقد تناثرت هنا وهناك قطع من هيكل قديم أطلقت عليه تسمية نظام سابق ، دبابات وسيارات مدنية محروقة ، نصف مبنى أو سياج فقط ، وقد تصدّرت لافتات الأحزاب واجهات مبانٍ حكومية ، واحتلّت السفارة الأميركية أبهى القصور الرئاسية وأكبرها . فاندهشت لهناء التي تبكي على مبنى متواضع سلبته منها ميليشيا كانت تحمل صور (أحمد الجلبي) .

قلت لها مرّة ونحن نعبر جسر الصرّافيّة قبل تدميره : ترى ماذا كنّا سنقول للعالم بلا فلوجة ؟

ردّت بصوت مبحوح من كثرة التدخين :

– الكرامة غضب كما تقول الستّ فيروز . وسكتت قليلاً ثمّ عقّبت : والنجف والجنوب كلّه . انتبهي كل جنوب في العالم ثائر!

– ما نحن فيه ، هو بالضبط ما وصل إليه تاريخ هذا العالم . نحن بارومتر تحضّره وعمقه الإنساني .

بغداد ٢٠٠٦

تناصّ جحيمي بين انقطاع الماء في بغداد وحريق شارع المتنبي / تمثال الفحم الذي من جروح وخمسة أبناء(*) ، ويباس في الشفاه التي سبقت الأوديسة والألياذة بألف عام ، فحم معمول من آلاف العظام لهياكل فرسان على الأرض تنفخ الريح رمادهم ، بإزائهم تماما تأكد لي أن لولا هذا السخام الكونيّ ما كان ليكون هناك بيت أبيض !

إنّه عام الدرل! والدرل آلة لثقب الحيطان والبشر تدخل إلى بيوت الله وتخرج منها ، مثلما تسرح وتمرح العجلات الأميركية في الشوارع وسط خواء سياسي وإعلامي يصبّ الزيت على النار ، ويخترع شخصيّة العلاّس(**) في أحياء تقطنها نساء بلا رجال ، مطلّقات ، مهجورات ، أرامل . ففي الحيّ الذي أقطن نصوص من هذا النوع ، وفتيان شبّوا عن الطوق للتوّ يغيرون بال آربي جي ٧ على حيّ قريب ، ثمة رصيف يقابله رصيف آخر يعاقب كلّ من يعبر إليه بالموت! تحت

(*) المعلومات أعلاه جميعها موثقة في المركز الدولي لرصد الاحتلال–بغداد . في حادث تفجير شارع المتنبي فقد صاحب مقهى الشهبندر أبناءه الخمسة .

(**) مصطلح يطلق على القاتل أشيع استعماله في بغداد أواخر عام ٢٠٠٦ .

شعار ليس منا من يمشي على ذلك الرصيف . ليس منا بائع الثلج ، ولا بائع الخضار ، ولا بائع الطرشي ، ولا بائع الجرائد ، ولا الخباز ، ولا (الخردة فروش) ، ولا الحلاق ، ولا الخياط ، ولا الزبّال ، ولا الممرض ، ولا الإسكافي ، ولا الطبيب ، ولا الصيدلي ، ولا المهندس ، ولا الطيار ، ولا الطالب ، ولا المعلم ، ولا المعلمة ، ولا البنت ، ولا الولد ولا . . . ولا . . . ، بقيت ماري تلك الجارة التي رفضت أن تغادر العراق ، وتمسّكت ببيتها رغم سفر أولادها إلى أوربا ، ورغم خلوّ الشارع الذي تقطن فيه تقريبا من ساكنيه ، وحدث أن تعرّض الحيّ إلى مداهمة من قبل دوريّة أمريكية ، ودخل الأمريكيون بيتها مثلما دخلوا بيوت الآخرين ، لكنهم ما إن رأوا صليبا معلقا على مدخل البيت حتى غيّروا من لهجتهم معها ، وقبل أن يخرجوا سحبوا خرطوم الماء من صنبور في حديقتها ليملأوا عبوات بلاستيكية تخصّهم ثم غادروا المكان . بعد عدّة أيّام شوهدت جثّة ماري مرميّة على المزبلة القريبة من منزلها ، ولم يجرؤ أحد من الجيران على رفعها أو تغطيتها وإلاّ عرّض نفسه إلى القتل ، وظلت الجثة في مكانها ، لكن الناس هناك قرّروا أن يقولوا للأمريكان عند أوّل مرور لهم إنّهم السبب بقتل ماري ، وأكثر من مليون عراقي ، ثّم مرّت بضعة أيّام والجثة على حالها ، والدورية الأمريكية لم تمرّ بعد ، وفجأة ملأت الطلقات الجوّ وأعلن فوز المنتخب العراقي ، وراح الناس يتتبعون هوّار وهو يلاحق الكرة ويسدّد أهدافه بجمال ورشاقة ، وقدّر في تلك الآناء أن تمرّ الدوريّة الأميركية

ذاتها بالمزبلة ، ويتعرّف جنودها على ماري ليرفعوا جثّتها في غفلة من سكان الحيّ الذين انتبهوا بعد ذلك إلى أنهم قد نسوا الجثة ، وسبقهم الأمريكيون إليها فعلق أحد الواقفين : دفنت الجثة معلومة الهويّة سهوا بفضل سكوتنا!

بغداد ٢٠٠٧

مفقود مفقود . . ذلك الأقنوم القديم عدوّ الدم ، نظير الحليب أو كما يصفه باشلار نقيض النبيذ ، الماء بكل ما فيه من إرغام للحياة على الإغارة ضد الموت . . في أحد الشهور فُقِد في الكرخ . لا توجد قطرة واحدة في منازلنا والشوارع فارغة إلاّ من بريد القتلة ، لا تسمع فيها سوى نغمات الموبايل التي تصدر من جالس يختبئ خلف عمود كهرباء لا حول له ولا قوة كهربائية ، هو في الحقيقة إكسسوار يتكىء عليه هذا الجالس ؛ كي يرسل الإشارات إلى آخرين يجلسون مثله خلف أعمدة أخرى أو خلف الشبابيك في مفترقات الأزقة ومنعطفاتها ، ثم فجأة تطلق رشقات رصاص خلف سيارة أو عابر سبيل ، فللسبيل هوية ومن لايحمل هوية ذلك السبيل لاحقّ له أن يكون عابرا . هكذا بمحاذاة الاسم الذي يطلّ على حديقة طلبت من صلاح ، الحارس في أحد مباني الدائرة التي أعمل بها ، أن ينحرف بالسيارة بعيدا عن الاسم المقتول في حادث مؤسف ، كما جرت العادة على تسمية القاتل وعنونته وليس الإشارة إلى القتيل وحسب ،

كي يسمح للوافدين أن يمرّوا إلى حيث نصب سرادق وارتفع صوت المقرىء ، فيما أوراق الأغصان والسوادة التي لفت حول جذع ترعشهما دفقات من هواء لافح حار ارتفعت فيه طبقة من الغبار حجبت الشمس قليلا ، وقرقعة الأواني المنزلية في الحوض الخلفي للسيارة تهدر هيبة صمت المعزين ؛ فباعدت ما بينها ، وكنت قد جلبت معي كل ما يصلح لملء الماء من أوعية وطناجر ، وبشقّ الأنفس استطعنا اجتياز منطقة قناصين من الجهتين حتى بلغنا الجسر ذي الطابقين ، متجاوزين منطقة الدورة كواحدة من ميتولوجيات الشطب المفتوحة على مزابل وبقايا بشر ، صارت المزبلة محنة ولها حرمة لفرط ما تكوّم فيها من حرمات ، من تلك البقايا الآدميّة الملتفة بأسمالها ، بانتظار محنة الانتظار نفسها ، التي قد تستغرق ساعات ريثما يتحرّك رتل متوقف لقوات الاحتلال يقطع الشارع ، وأنا أتساءل طيلة الوقت هل سأعود؟ ومحمّلة بهدايا الماء؟ هل ثمة مجهول آخر يمكنه أن ينقذ طفليّ من مجهول بتُّ أعرفه وآلفهُ؟ وبدا صلاح متضايقا من النزول إلى الشارع ، وهو الذي يحمل معه هويّتين ويرطن بلهجتين ، مشرّقا كان أم مغرّبا ، يمكن أن تنقذهُ إحداهما بحسب طبيعة حاجز التفتيش الوهمي ، فقد عاش أكثر من خمسة عشر عاما هاربا من الخدمة العسكرية ، اعتاد خلالها على التحفّظ من الناس ، بل حتى من الحيوانات التي كادت مرّة أن تكشف أمره وهو مختبىء في بستان ، حين داهمت مفرزة تابعة لفرقة حزبيّة المكان بحثا عن الفارّين فتعلّق

بثدي بقرة إلى جانب وليدها الذي غمغم وهو يرتشف حصّته من حليب أمّه ؛ فلم ينتبهوا إليه بل حسبوه بحسب تعبيره (حولي) ، وفي الليل كان ينام متوسّدا بطن كلبه الذي مات فيما بعد متعرضّا إلى صعقة من سلك كهربائي مُدّ على أرض طينية رطبة . ومازال وحيدا بلا كلب وبلا عائلة ، منذ أن قسم إخوته ميراثهم المكوّن من بيت متواضع جمعهم في يوم من الأيّام في حياة أبيهم ، الذي امتنع عن شراء بيت آخر أو قطعة بستان خوفا من الاشتراكية! ظنّا منه أنّها ستصادر ملكيّته الخاصّة ، وآل الحال بصلاح أن يسكن في إحدى الدور العائدة للدولة حتى عام الغزو ؛ وقد وصل الأمريكان وراحت الرأسماليّة تستعرض مفاتنها هنا وهناك ؛ ليبيت ليلاته مرعوبا منها خشية أن تخصخص الدولة شقّته البائسة تلك ؛ وقد ورث عن أبيه مبلغا نقديّا صغيرا وخوفا كبيرا من شكل الدولة ، لكن المليشيات حلّت عقدته النفسيّة تلك ، فصادرت الشقّة تحت تهديد السلاح ، وضاع البيت من حياته للمرّة الثانية ، ما جعله يدفع ما لديه رشاً كي يحصل على تعيين كحارس في دائرة حكومية ، وحصل أخيرا على الوظيفة ، أقصد على مكان ينام فيه .

حرّك صلاح السيارة بعد أن ابتعد الرتل واستطعنا اجتياز الجسر حتى بلغنا الكرّادة ، لأفاجأ بالبعض يسحب الماء بواسطة مضخات نصبت فوق آبار حفرت للتوّ ، لم نتوقف طويلا ، كنت أحتاج إلى صوت يصلح أن يكون سريرا لأتمدّد فيه من تعب ، بعيدا عن أغنية

الماء تلك ، وعثرت في حقيبتي على كاسيت ماجدة الرومي ، فناولته إيّاه وغادرت بصوتها الواقع المريع ، معها أحسست أني أحتاج إلى رئة بحجم العالم كي أسحب نفسا ، وقد غالبت ما شعرتُ به من إرهاق ونزلت لأملأ ما استطعت ملأه من الماء ، ومعي كان صلاح يشيل ويحطّ مستبدلا آنية بأخرى دون كلل . ثمّ أخذنا طريقنا مرورا بتمثال السعدون الذي خطفوه قبل مدّة ووضعوا بدلا منه نسخة مختزلة أقلّ حجما وأخفّ وزنا ، ازرقّ فيها كتفه وشيء من معطفه بسبب الأكسدة ، لم يسلم أيضا أبطال مايس من الخطف ، بعضهم قال إنهم لقوا مصرعهم في انفجار ، وحتى الرصافي لم ينج من الرصاص العشوائي ذات اشتباك ، ذات انفجار ، ذات أمريكان . . حتى بلغنا سمك المصالحة الوطنيّة ، حيث وُضع سمك الجرّي الذي حرّمته الشيعة وأحلّته السنّة على عربة خشب ، وراح البائع يلوّح بالسمكات للمارّة وهو يصيح سمك . . سمك المصالحة الوطنيّة !وقد لفّ رأسه بعصابة سوداء ، فيما تهدّل من على مقبض عربته علم من الساتان الأخضر إشارة إلى طائفته وتقديرا لمذاق الطائفة الأخرى في الأكل ، ومن حيث طفت الطوائف على السطح هكذا دفعة واحدة ودون سابق إنذار وتغيّرت ديموغرافيا المناطق وديموغرافيا السمك ؛ وقد استهلّ الإسلام الهندسي (القاعدة مثلا) دعواه بالتقابل مع محاولة صنع إسلام بروتستانتي لقمع آخر بيور (pure) جدّاً كلما اجترّت أميركا إنشقاقاتها وذكريات حروبها بين الشمال والجنوب ، تلك التي صارت

بعيدة . . وأجدني مازلت أقول الحمد لله لم يضحك عليّ بائع الخرز بدرّة نابي خانم بنت الوالي وزوجة والٍ وأمّ لوال! ، والفرق ليس كبيرا فجغرافيا الضحك شاسعة وكونية ، وصار لزاما على الضاحكين حمايتها من متطلعين جدد ، لكن المعضلة تكمن في أنّ النكتة غدت بائتة لم تعد تضحك كالسابق حتى عند دول متواضعة كالعراق وأفغانستان ؛ فما هي الخطوة اللاحقة إذاً؟

يقول إيمانويل تود في مؤلفه المهم (ما بعد الإمبراطورية) «إنّ رفع الإرهاب إلى مرتبة القوة العالمية يؤسس لحالة من الحرب الدائمة على مستوى العالم ، حرب عالمية رابعة ، إذا اعتبرنا أنّ الحرب الباردة حرب ثالثة!» . هكذا يحافظ القطب الأوحد في العالم على دورانه حول نفسه بقوة طاردة مركزية ، تغذيها بؤر من التوترات ما يجعل مسألة حلّ النزاع الفلسطيني الإسرائيلي مثلا على يد هذا القطب ، على حدّ تعبير المؤلف أمرا مشكوكا فيه .

هذا ما توقعّته منذ اللحظة الأولى التي تصفّحت فيها المخطوطة ؛ فالقسم الأعظم منها امتدادات في الماضي لا تثير كثير جدل لكن ما أربكني هو النبش نفسه في هذا الماضي ، نبش مدسوس ينجز مدوّنته إلى جوار المدوّنة الأمّ ، وسط ما وجدتني أسجّلهُ بعجالة في حاشية طويلة . . . :

١٦تشرين الأول ٢٠٠٧/ مطار عمّان

قال لي الضابط بالحرف الواحد أنت تمرين أمّا أطفالك فلا!

- لماذا؟ أنا أمّهما .

- لأنهما فلسطينيان .

- ولكني أمّهما وأضمنهما بهويّتي العراقية!

- لاينفع . هذا ليس قراري

- القرار هذا خاطئ فهما طفلان .

- القرار قرار جامعة الدول العربية ، وهو يضمن عدم نسيان الفلسطينيّ لقضيته . ويضمن له حقّ العودة .

- ولكنه ينبغي أن يعيش كي لاينسى! . . لا أن يكون منسيّا كي تعيش الذريعة ذاتها!! . . لا تقلقوا لن نبقى طويلا سنمرّ فقط .

- لا ممرّ ولا مستقرّ القانون هو القانون .

بل وصفة وصفات ! ونسيان وصمت عربي ، قلت في نفسي .

ثمّ تكفلت المفوضية السامية لشؤون اللاجئين مرور طفليّ على الطريق الصحراوي وإلى مخيّم رويشد حصرا . كان يوما واحدا ذاك الذي أمضيته في المخيّم ملأ فمي بالمرارة من المحيط إلى الخليج . . .

الآن . . في هذه اللحظة ، وفي كلّ لحظة ، أعرب عن شكري إلى البرازيل ، البلد الذي أودع كأس فوزه في غزّة عاما كاملا ، وتعهّد مرور طفلين على أرض العالم .

ثمّ وأنا أرتب مناما لهما على كراسي الطائرة ، تحسّستُ العقيقتين

في حقيبتي وأخرجتهما على الفور ، رحت أقلبهما على راحتي وصدقا لفتت انتباهي تلك القدم البشرية الـ بطول ملليمترين ، تأملتها وأنا أنظر إلى أقدام طفليّ الصغيرة الوردية وهما يغطان في النوم ؛ فتمتمت : التاريخ إذاً هوس . . بل ضحك في عقيقتين ، وضحكت وأنا أرمي بهما كما النرد على المنضدة الصغيرة قبالتي وحاولت بمنطقهما الداخلي قراءة السؤال ، مستنجدة بشتراوس دون ما أمل في الحصول على إجابة تربط بين مقطع عرضي في مشرحة مثلا والطريقة التي نشأنا فيها ، حيث الهوية قرابة دم ، ولا قرابة في أزمنة وأمكنة بعينها طالما أنّنا بلا حماية ، ففي اللحظة التي نعتقد فيها أننا قادرون . . ترى قادرون على ماذا؟ و تمييز يوجزنا ، تكفله علاقات ما تومىء إلى طريق صحراوي مثلاً يأخذنا إلى معسكر اعتقال أو مخيّم حصراً !؟

٣

ودخلت القبو . أهو لك ؟ هل هذا المعتم ظلك؟ أيّ قوّة رمت بي فيه؟ كان فخّا إذاً! لقد أقفلتُ الذاكرة على نفسي ، وكنت أظنّ أنّي دفعت بالكاميرا المحمولة في السيارة إلى الداخل وارتحْت . وها أنت صاح متوفّز وأنا في أسودك هذا تعذبني ذاكرتي وذاكرتك ، أفكاري تدور حول نفسها ولا يوجد أيّ منفذ ، لم أرك منذ ذلك اليوم التسعيني المشمس ، من أين عساي أتسلل؟ هل بالإمكان لو أنّك تذكّرتني ، لو أنّي مررتُ بك في الحلم مثلا؟! . . ترى ياسطيفان هل يحقّ لك أن تحلم؟ هل تركوا لك فسحة لذلك؟وعندئذ ، وكما ظهرت لك في الترعة ، سأظهر في حلمك ولو بشكل متقطع مثل نوبات صحوك!

مازلت في الأسفل بين الحفريّات أمشي بتؤدة ، باتجاه باب القبو ؛ وقد امتدّت على طول جدرانه رفوف تكدّست عليها طبقة كثيفة من الغبار ؛ فأواصل سيري متسلقة درجاته لأطلّ من الباب : هي ذي أنا أمام المرآة وبيدي مخطوطة ؛ فأتراجع لأختبىء ، فما كان مخططا إطلاقا أن أصاب بالثنائية أو (نلتقيان)!! والذي حدث غير الذي

توقعت ، ففي ذاكرتي قبو آخر راح يتسع ، وتبدأ بالتراكم صور لوجوه بلا أسماء وأسماء بلا وجوه ، أرقام وخرائط ، أسرّة تنزلق ونقالات تتحرّك سريعا ، ورواح ومجيئ لأطبّاء ؛ ثمّ تتقدّم لوحة كان سطيفان قد رسم جزءا منها في الواقع وعرضها عليّ في حينها ، الآن تصلني كاملة تظهر فيها بارجة بحّارتها يرمون قناني البيرة الفارغة في الماء . وصدقا أنّ هدير الأمواج جعلني أسترخي قليلا ، ثمّ ذلك الرذاذ الدافئ الذي راح يلامس وجهي فأغفو وأنا أتمتم باستسلام . . ترى سطيفان ماذا يمكن أن يحلم النائم في حلم نائم آخر؟

أبعد من التذكر . إنّه نبش . فأنبش وأنا مغمضة وقد بدا الممرّ المؤدّي إلى مختبره طويلا ، ويذكرني باستوديو عهدي ، بل إنّ جدرانه هي جدران الأستوديو نفسها ، فذي عيون زينادين ، وتلك لوحة بول كلي ، صور أصدقائه ثم آثار الأقدام : صوت كرامة الذي راح يتسلق الحيطان إذْ تنغرس أشواك سعف النخيل في ساقيها وهي طفلة تصيح . . . تظهر جالسة على مصطبة ، ومن حولها ريش منفوش ، وامرأتان تسكبان الماء . رحت أجتاز الممرّ وصياح كرامة وصوت نحيبها يصل إلى سمعي ، كأنّما هو قادم من دهور سحيقة ، حتى بلغتُ الترعة ، ومرّة أخرى أنا طفلة تسحبني أيدٍ ، وسطيفان يقف على مقربة هادئا يحدّق بي ، ونصف وجهه عيون وعشرات الأسئلة أبتلعها مع الماء ، تذكرت وأنا في الحلم أني أحلم ، وكلّ الذي يجري يموّه على ما يجري بالفعل ، فالهواء يرتعش في الهواء مثل كائن بدائي لا يعيش

أكثر من دقائق ، يطير بعدها بخربشاتي من على الورق ، ويتركه باهتا فيما تمطّ إحداثيات المكان عضلاتها ، وتطقطق عظامها ويدفع سطيفان بيده قبالتي على مائدة صورة لمنحوتة ، وهو يحمل في يده مصباحا قويّا سلطه عليّ فصحوت ، إذاً هذه نوبات صحوهِ ، قلت في نفسي ، ثم وجّه المصباح إلى رأسه ودفع الصورة بطرف إصبعه ، هي قرية أقبرها الطوفان ، ثم حين ظهرت الشمس بعد أيام موحلة هي الأخرى شديدة اللزوجة وقد جفّ كلّ شيء ، وتوضّحت القرية ثانية منحوتة من الطين ، التصقت بها الأشلاء وبرزت منها الأذرع ، الأيدي ، والعيون . . ، قال وهو يقرّبها مني : لا يمكن الإمساك بالواقع هكذا ، إلاّ في حالة واحدة ، أن تحدث كارثة كهذه مشيرا إلى المنحوتة . الكارثة حاصلة حاصلة وبدأ المكان يمطّ إحداثياته ثانية ، وينمو بطريقة بدائيّة يبلغ الذروة ، فيتحرّك الضوء متموّجا على ذاته مثل حزمة أسلاك شائكة يدور معها ، وتروح تتخلّع من حوله تلك الأسلاك وتنفتح برّيّة شاسعة تؤاربها ليلة باردة ، كنّا جميعا نحوّم فيها حول سرير كرامة : لا تموتي رجاءً . ستموت وبكينا ، هل تموت؟ ثم عاودنا الرجاء :

لا تموتي .

وفي الصباح رأيناها واقفة في الحديقة الخلفيّة ممتشقة قامتها (بزبونها) الأثير لديها . ثم انحنت تقطع الحطب وقد اختمرت عجينة الخبز .

قلت لها : البارحة كدنا نموت لا تفعليها مرّة أخرى رجاءً!

ثم بدأ التنور يشتجر ويتهدّل حلقه إذ تتطاير ألسنة اللهب ، والأماكن التي نمت قبل قليل عادت فانضغطت يحدّدها هدير الطائرات وهو يقرع الجدران ، ولكي لا تسقط علينا تلك الجدران ، ركضنا مستجيرين بأسماء الله الحسنى ، وبكلّ النبيين والصدّيقين ، الصواريخ والقنابل تنبش بيوتنا وحدائقنا ، ونحن ننبش التراب بأقدامنا ، بعيون مغمضة وعيون مفتوحة ، فينكشف وجه التاريخ ندوبا وحفرا ، آثار حروق ، سحجات وطعنات بالسكاكين ، أراض سباخا ومقابر تفتح المدفعيات جوفها وترشّ أمواتها رشّاً ؛ ليأتي دور البلدوزرات وهي تعلس شواهد وصورا لشهداء ، ثم تحدل الحادلات عليهم ، ويكتمل المشهد بلصوص يسرقون حديد المقابر والآليّات المحطمة المتناثرة ، فيما تمتلئ الشوارع بالسجناء ونزلاء المصحّات العقلية . وفي نهاية سلّم لايؤدّي وعلى يدي صفّ من ملاءات بيضاوات نضّدت بعناية ، التفتُّ صوب همهمة لأحدهم . . . كان سجينا منسيّا يركض لايدرك الجهات ، لحيته البيضاء تدقّ عظم القصّ عنده ؛ وقد تشعّث شعره والرجل كومة غضاريف تنهض وتقع ثم تنهض وتقع ، فرميت له بملاءة فلم يعبأ بها وهو يمسك بأصابع الموت ويقول له :

– توقف لمرّة واحدة وقل لي الحقيقة أرجوك!

كانت أظافره أصابع أخرى ، والأصابع عروق زرقاء امتدّت خلال الساعد لتصل إلى الرقبة ، ومن ثم إلى الوجه ، رآها وقد أتت في يد ما منفصلة ممزوجة بدم شاحب وبلازما خفيفة نثّتهما الريح فضبّبت

زقاقا بأبوابه وشبابيكه ، إلاّ أنّ الموت لم يتوقف بل ظلّ منهمكا يفتح عباءته السوداء ليجرف كل ما أمامه وهو يقول :

– منذ متى وأنت هنا؟ منذ خمسين عاما . . مئة ، كيف لم تخطر ببالي . . ها؟

ثم دوّى المكان ثانية وثالثة ، وامتلأ بشظايا تساقطت بشرا التفّت بهم ريح الليلة الباردة وانتثر الرجل ، كومة الغضاريف تلك ، دقيقا ناعما في الهواء لامرئيّا بعنف ومنسيّا بعنف ، والناس يلمّون ذلك الدقيق الناعم والغبار معا في أكياس الطحين ويخبزونه ، وتنقضم كسرة الخبز والعيون بالعيون والوجوه ذاهلة ، الأيدي على الكسرة والرؤوس لا تعرف الجهات ! وبلغ الموت أرذل العمر وهو يطوف ويلكز بعكازه الصغار والكبار ، حتى غدا علامة فارقة للعشرة الأخيرة من القرن ، وشخصيّة مألوفة تزور وتتزاور ؛ إذ لم يعد الموت يرهب كالسابق ، بل أقسم بعضهم أغلظ الأيمان إنّه رآه يقوده من يده مربّتا عليها ويتحدّث إليه مواسيا قبيل وفاة طفله . آخر يقول إنّه يجلس كلّ يوم بجانبه على دكة دكانه بسيطا متواضعا ، وأحيانا كثيرة يبدو رقيقا وليس مؤلما ولا مخيفا كما كنّا نتصوّر ؛ فأغلبنا صار يموت بلا ألم . . ، ربما بسبب ألم الـ بلا ألم ذاك ارتفع صوتي فالتفت الناس ناحيتي ، وراحوا يتهافتون على الملاءات التي لديّ حتى نفدت ، عندئذ صار السلّم يؤدي إلى غرفة ظننتها للوهلة الأولى غرفتي ، وجدت فيها كرسيّا واحدا وملاءة بيضاء ، ثم نوافذ تطلّ على آلاف النوافذ وآلاف

الغرف الممتدّة أميالا ، فيما وعلى شاشة التلفاز يظهر حيّ فقير في البصرة يدعى الجمهورية ، قتل الأمريكيون أطفاله النائمين قبيل الثامنة صباحا ، يلي ذلك ظهور متكرر لقسّ لندن وهو يخطب مندّدا بالحرب على العراق ؛ فقلت بصوت خافت متقطّع : كي تصل يا أبتي إلى حيّ الجمهوريّة عليك أوّلا أن تعبر إلى القرن التاسع عشر ، حيث يقيم فقراؤكم اليوم ! ثم أعود وأغمض عينيّ وينضغط جسم المكان ثانية ؛ لألمح شخصيّات لم أرها منذ مدّة طويلة وهي تفكّ أسلاكا وشباكا من حولها . بعضها تواطأ في نسجها ، آخر استهلكته الحياة اليومية فتركها تستفحل وتمتلئ ببيوت العناكب ، ترافقها هستيريا جسديّة وصوتيّة ، وتتدخّل الفيزياء مع الكيمياء ، محيلة الكلمة إلى دم شاحب وبلازما خفيفة باهتة تنبجس من جسمي فينفتق الجلد ويتشقق . . تتحرّك من تحته أذرع ، أعناق ، ورؤوس ، ويتضاعف المكان ، هي ذي ظلال الرؤوس والأعناق والأذرع ، أنا إذاً منحوتة الطوفان تلك!! ومرّة أخرى أسرّة ونقالات تتحرّك سريعا وسط رواح ومجيئ لأطباء وممرّضات ، ولمحت سطيفان واقفا وهو يعتمر قبعة ؛ فقد تساقط شعر رأسه بالكامل ، وكان يحمل بيده مصباحا قويا سلّطه على وجهي ؛ فاستيقظت ، ثم وجّههُ صوب رأسه وقد بدأ التعب يظهر عليه ، غام المشهد ثانية وعدت أغفو . . حلمت أنّي في البيت القديم بالقرب من البئر وقد بدا غطاؤها مثل باب خشبي أطرق عليه فيأتيني ؛ وقْعُ أقدام من الداخل . . .

٤

الآن ينكمش وجه المرأة على العود إذ يقطع عهدي الطريق المحاذي إلى النهر ؛ وقد بدا إلى جانبه كسيْلٍ من آلاف العيون والرؤوس ، تدفع أمواجه بجمع من الأرواح في إيقاع تشتبك فيه أصواتها بالخرير لتشكّل أوبرا راحت تتجه إلى الجسر العتيق ، تعبر معه الجسر حيث كانت النوافير قديما ومن حولها تماثيل رخام بيض مجنّحة ، وعلى يساره مكتبة المعارف ، وخلوة امتلأت بالحصى والرمال ، ولا أدري كيف سكت الناس في حينها على اقتراح كهذا يهدّد مكتبة عريقة بل أثرا من الآثار بالإزالة . ثم دخل إلى السوق مارّا بالحفر والنقر والتلول الطينية المتيبّسة ذاتها وجميعها يصرخ : ما زلنا على قيد الحياة . إلاّ أنّ الوجوه غير الوجوه التي عرفها في زمانه . فمن تركه في العشرين صار في الخمسين ، ومن كان في الخمسين رحل إلى دار حقّه . فلم ينتبه إليه أحد وقد ابيضّ شعر رأسه وهزل جسمه وتورّمت عيناه ، فما تعرّف على أحد وما تعرّفوا عليه ، باستثناء شخص واحد ناداه بأعلى صوته : عهد!! فعرفه على الفور ، إنّه جبّار المعروف ، والتفت ناحية دكّانه ، نعم هذا هو دكانه ، وهذا الكرسيّ ببابه ،

والذي اعتاد أن يجلس عليه ؛ فسلّم سلاما حارّا وسحب الكرسيّ كعادته وجلس بالقرب منه . فتبادلا الأسئلة عن الصحّة والأحوال وأخبار الدنيا داخل العراق وخارج العراق . ثم أمسك جبّار بكتف صاحبه وغصّ بالضحكة قائلا :

– هل تتذكر هذه الزاوية؟ هنا حاصرنا نسيم .

– أتذكر . . أتذكر

وغصّ الاثنان بالضحك ، وكان نادل مقهى ليلو الذي يقع قبالتهما في منتصف السوق الذي سقف قديما بقماش سميك ودعّم بجذوع النخيل ؛ قد جلب لهما استكاني الشاي ، فيما كان الهبش(*) جالسا قبالتهما يأكل الأستكان ، بعد أن يعبّ شايه ولايجرؤ بطبيعة الحال صاحب المقهى على الاعتراض وإلاّ أخرج له من جيبه الجانبيّ الطويل أفعى وجعل يلوّح له بها ؛ فعلق جبّار : هذا الملعون يأكل الزجاج ولا يؤثّر فيه سمّ الأفعى ، ويقال إنّه ضدّ الكهرباء! أيّ مخلوق هذا؟ فحرّك عهدي رأسه مشاطرا إيّاه الرأي ، ثم التفت ناحية رجل هرم نحيل الجسم وقد برزت مقلتاه وعظام وجهه فقاطعه :

– هل تعرف من يكون ؟

(*) شخصيّة ظهرت في الحلة أواسط القرن الفائت كانت تتمتَّع بقابليات غير عادية . رحلت في أواخر الثمانينيات .

-لا أتذكره .

- هذا محفوظ صاحب الحقيبة ودكّان المكان ، مقصّه معه ومع بعض التشذيب صار ابنه! الذي حوّل المكان إلى دكان الألحان ، وهو في الحقيقة يبيع الأفلام الإباحيّة وكبسولات الحشيشة للشباب وطلاّب المدارس ، وكلما أمسكت به الشرطة نفذ منها مثل الشعرة من العجين ، وبراءة الأطفال في عينيه وعينيْ أبيه قديما . وقبل أن أنسى هل قالت لك الحاجّة إنّ بيت هبوب قد أخذوا بصمتي إبهامي العجوزين قيسة ونهاية وهما نائمتان بل غائبتان عن الوعي ؛ وقد ختّموهما على أوراق بيع وشراء مزوّرة عن حصّتيهما في البستان؟!

- نعم علمت . إسمع جبّار ، أريد أن أجلس معك جلسة طويلة . ما رأيك أن تأتي الخميس إلى بيت (الحجي) ونسهر معا سهرة من العمــر؟

- انتظرني سآتي .

ونهض عهدي مستأذنا ليسلّم على صاحبة ؛ فانتبه إلى الكرسيّ ، كان فارغا!! لا أحد يجلس عليه ، لا جبّار ولا غيره ، والمقهى قد تحوّل إلى دكاكين لبيع الملابس ، فلا الهبش ولا النادل ولا أيّ أثر لاستكانات الشاي . . ليس سوى دكان الألحان وقد وقف فيه شاب على درجة عظيمة الشبه من صاحب الحقيبة ، بالتأكيد هذا ابنه أو حفيده . . ربّما . . تمتم عهدي وانتابه إحساس غريب فيه حنين ، لوعة وارتياب أيضا . وثمّة ألم عتيق راح يتواصل ؛ وقد جعل

ينوء بحمل ذلك كله وهو يكمل جولته ، قاطعا تلك الجادّة الطويلة ، فيما امتلأ السوق فجأة بسرب من الطيور راح يحلق وطيئا ، ترافقه تلك الأوبرا عن بعد فيدخل إلى زقاق ضيّق وطويل هرمت شناشيله وتهدّلت ؛ ليتوقّف قبالة أحدها مثل طفل ، وجعل يتأمّل شبّاكا بهت لونه وتفطّر خشبه لفرط ما هطل عليه من أمطار ؛ وقد غادره أهلوه منذ أكثر من ثلاثة عقود ، حيث وقفت خلفه ذات يوم أجمل السمراوات في نظره . ثم انعطف ليدخل بيت (الحجي) ، ورأى كرامة وبالقرب منها قفّتان تهدهدهما ، وأمامها صندوق خشبي صغير وله قفل وفي داخله ، كما يبدو ، أوراق مهمة جعلت تقلبها وتقرّبها من عينيها ، رغم أنّها لا تجيد القراءة والكتابة ، باستثناء اسمها الذي تعلمت أن تنقشه في مركز محو الأميّة ، فرفعت رأسها لتردّ التحيّة حين دخل عهدي :

– مساءالخير والبركة . وأردفت :

– هذه أوراق المعاملة ولكن اليوم خميس لا توجد مرافعات في المحكمة ، وراحت تدعو له فيما هو يدخل غرفته القديمة ثم إلى استوداياه هامسا :

– إذاً اليوم خميس! كيف غاب هذا عن بالي؟ على أيّة حال لن يخلف جبّار موعدا .

ثمّ فتح الكومدينو وأخرج زجاجات الويسكي ، وسمعت كرامة صوت قرقعتها فأطلت عليه معترضة بشدّة :

- ألم تترك الشرب يا عهدي ؟ ألم يمنعك الطبيب؟

- هذه آخر مرّة .

فخرجت متضايقة تردّ ردفة الباب من ورائها وهي تقول :

- أنا أصلي يا عهدي وأريد أن يبقى المكان نظيفا .

-صدّقيني هذه آخر مرّة .

فقالت وهي تضرب على ساقيها مختنقة بالعبرات :

- إذا أنا سكتّ . . القرحة من يسكتها؟

- أنا سأسكتها . أسكتها وأتخلص منها!!

ولأوّل مرّة يدخل جبّار إلى البيت دون أن يطرق الباب ، آخذا طريقه باتجاه غرفة صديقه ، دون أن ينظر إلى كرامة أو يلقي عليها التحية ، كما أنّها لم تشعر به يمرّ وهي ترتّب الأوراق . ثمّ طرق باب الحجرة ففتحها عهدي وقد غمره اللقاء بفرح كبير ، واندهشت هي حين سمعته يتكلم مع شخص آخر وتساءلت :

- هل ثمل بهذه السرعة؟

فأغلقت الصندوق وحملته إلى خزانة ملابسها ، وعادت إلى باحة الحوش متوتّرة قلقة ، وصوته يصل إليها رادّا على تساؤلات صاحبه :

- هل عدت إلى الشرب يا عهدي؟

- سئمت الممنوع وكلام الأطباء . اليوم أريد للممنوع أن يسأم نفسه .

سكت قليلا ثمّ دفع كأسا أمام جبّار وأخرى أمامه معلقا :

- كما أني أريد أن أحتفل بك!

ثم رفع بصره إلى حكمة يعلقها كلّ المصوّرين في العالم : «الحياة فقاعة فصوّرها قبل أن تنفجر» وقهقه قائلا :

- اليوم سأفجّرها!

- ماهي؟

- الفقاعة .

- أيّة فقاعة . . هذه التي على الحائط ؟ . . ضاحكا فقاطعه بمرارة :

- التي بداخلي . هنا . . هذه وراح يضرب على موضع معدته .

سكت الرجل مراقبا صاحبه وهو يسكب كأسين اثنتين في كل مرة ، ويعبّهما الواحدة تلو الأخرى ، وظلّ كذلك حتى قضى على الزجاجة الأولى فسحب الأخرى وفتحها بعصبيّة وجعل يسكب .

- ماهي أخبار ابنك؟ ابتدره جبّار بالسؤال .

- صمت .

- ما اسمه؟

- ذكران . وأمّه أسمته سطيفان على اسم أبيها ، والحاجّة نادته عهدي . ثم ضحك معقبا : عهدي الأول (مشيرا إلى نفسه) . . وعهدي الثاني .

ثمّ تلوّت رقبته وهو يحكّ جبهته ويمسحها بأصابعه ، مارّا على

كلّ وجهه وقد رفع الكأس بيده الأخرى :

– بصحتك وصحة عهدي الأوّل والثاني وعقّب :

يدرّس التاريخ الطبيعي وينقّب آثاراً . قلت له مرّة : أنظر إلى الأمام وكفّ عن نبش القبور وقلقلة الموتى ، فقال لي : عدستك في الضوء وعدستي في الظلّ . . لقد فشلت كل الأحزاب في ترتيب حياتنا على الأرض ، من يدري قد أعثر على الضالّة هناك ، تحت ، في أعماق الأسفل . لكن . . ثمّ . . وأجهش عهدي بالبكاء ثم عقّب مغيّرا الموضوع :

– هل تتذكر عندما صعدوا إلى القمر أوّل مرّة؟ قلت لي وقتها إنّ الحكام وجدوا طريقة للتخلص من أعتى المجرمين والسياسيين على الأرض ، فبدلا من بناء السجون ودفع الرواتب للعاملين بها يضعونهم في كبسولات ويطيّرونها في الفضاء والله معهم!! بالله عليك ألم تكن خائفا وقتها من مجرّد أن تتخيّل نفسك بداخل كبسولة تحلق عاليا (ولا آن ولا ودان)؟! وغصّ ضاحكا . . .

وكان سرب الطيور قد وصل إلى الزقاق ، ثم انحرف محوّما حول الشناشيل ، وأكمل انعطافته باتجاه بيت (الحجي) متحشّدا عند الباب ؛ وقد اندفع مخترقا الممرّ القصير إلى الباحة منتشرا فيها ، لم تره كرامة ولكنّها أحسّت برفيفه قريبا ، فدفعت بمعصمها ألما في صدرها ، واندفعت إلى حجرة ابنها وهي تصيح وتلطم على وجهها ، كان وحيدا إلاّ من كون هائل لا نهائي ، راحت تحلق فيه كبسولات السجناء

والمضادات الحيوية ، آلة الكاميرا وزجاجات الويسكي الفارغة ، الكؤوس والفقاعات ، قرحته التي انتشرت كالغبار في مجرّته تلك . لم يكن فيها سواه ، فجبّار المعروف قد توفي منذ ما يقرب من العشرين عاما ، والطيور التي قدمت وطيئة التحليق جعلت تخفق بقوّة ؛ وقد ارتفع صوت الرفيف ، أصبح أنينا حين مدّتْ أجنحتها يدا بيضاء باتجاه وجهه ، وجه الإبن ، أسفل مجرى النفس تماما ؛ لتتحنّط في منتصف المسافة وتتهشّم أشباحها البلوريّة ريشا راح يخفق مغطيا الثلاثة .

الطمّـــة

هي مخطوطة متآكلة . تطالعني كلما فتحت جراب علاماتي إلى جانب أشياء أخرى مما لا أستطيع أن أسرّهُ . أحسّهُ وأتوهّمه . وتصعب على الأحياء اليوم كما بعيدا جدا في الأمس فكفكة رموزها ؛ لذا أُجّلت آجالا وأجيالا وحروبا ومجاعات ومقابر سرّيّة وعلنيّة طافحة بعظام ناعمة دقيقة تعود لأطفال وأخرى لراشدين . استخدام آخر للطمّة في كونها حاجز افتراضي بين أموات وأحياء ، دون أن نسمع يوما بحدوث خلاف بينهما حول حدودها ، ذلك أنّها وكلّ يوم يظهر منها شيئ مثل غريق ينحسر عنه الماء ببطء تنزلق معه على أرض زلقة ولزقة أيّام من السلف في مأمن من أن تقع في يد ، ولا أمل في إعادة صياغتها أو فهرستها بدلا من دسّها في المخطوطة المتآكلة أعلاه ، هذا ما أتوهّمه وأتوسّمه في تلك الخزانة من خطانا وخطايانا ؛ إذ يقف الواحد منّا وجها لوجه معها منطويا على ذاته وذوات أسلافه بلا حصانة أو حزام عفّة إزاء ما يتسرّب منها الينا ومنّا إليها . والطمّة ما قبلها وما بعدها ، إنّها نفْس . . وكأنّها وادٍ سحيق ، وثمّة ما يتخلّق في أعماقه تطوف عليه أجناس أنصاف مخلّقة ؛ فإذا همّ بالحركة لفظته

الحافة وذهب أبعد من طائر رفرف بجناحيه وانطلق عاليا . . لم يختفِ بل انتشر . . هكذا انتشرت الطمّة في الناس أنفاسا وروائح ، ذراتٍ من تراب ، دفائن وأشباحا ، عتْمات ، كوات ضيقة من الضوء ونفايات راحت تتكدّس أكياسا وأعقاب سجائر ، وخرقا مرميّة كجمل تقليدية قيلت كثيرا وتعاد لبؤس ما ثم تلقى للبؤس ذاته ، إلى جانب جثث الحيوانات وعظام الموتى . ويختلف الناس عنها في الظاهر لكنهم ما إن يبدأوا بالكلام حتى تظهر الطمّة على ملامحهم ، هي لاغيرها ، هم لا غيرهم ، في نبرة الصوت والنظر والسمع والمشية فيما يتذكرونه وما نسيوه بالفعل ، حيث يكمن صدقهم ؛ فإن كذبوا فإنّها موجودة كي تفضح . ولا يعدّ ولا يحصى من الأبواب المشرعة للتاريخ كي يدخل مثل جرو كسيح أو ريح عاتية تملأ العالم بالقصاصات والريش والغبار ، بكلمات وحكايات ، تاريخ يكنس آخر ، إنّه لايضعه خلفه وينساه بل من شدّة الخوف يحمله ، ونسيانه معا ويدفع بهما إلى الأمام ، من كلس وجذوع وأحجار فائضة عن حاجة بناء ليست كأيّ حجارة ، إنّها المنقوشة بختم مسماري ؛ فقد بنى أهل المحلة بيوتهم من هدم المدينة الأمّ التي تدعى بابل ، تجفل جادّتها الملكيّة بصمتها المهيب كلما مرّت عربات تعلوها أكوام من الحجارة ، والناس الذين يقطنونها ما زال شبح عرباتهم خلف الحيطان .

فاضت الحيطان ذات يوم بأحجار مخنوقة بالنقش ذاته ؛ فسقطت المدينة وتطايرت الأبنية وتجمّع اللصوص ، والحكاية هي . . هي ، في

كل زمان ومكان . ما يقلق وحسب هو تسلسل الطمّات في عمارة أسندت خطأ إلى التاريخ ، فالتاريخ سجلّ أمّا هي فلا . إنّها الأرواح التي تعيش هذا المسمّى ، تهبّ كلما ذكر اسم من الأسماء ، فالطمّة إذاً ليست مخطوطة ، كما أوردت في بداية حديثي إنّما بمحاذاتها . وكلّ ما مضى بمثابة بروفا أو أي مثابة أخرى باستثناء أن تكون الحياة من أجل ، فدائما هناك تريّث ينتظر فيه الميت موته ، أيّا كان شكل الانتظار ، مقاومة أم هروبا ، فهو مجابهة للموت تعيد اكتشاف الناس ، الفضاءات ، الجرائم المشتركة ، وفي العمق عاليا حيث تقف معتقداتنا ، ابتكر الإنسان الطمّة ليخفي وجهه ووجهته وحياة الكثيرين ، خوفا من الفقدان الذي مني به مذ طرد من الجنّة ، فجعل يقدّم قرابينه كي لا تستمرّ الحياة بدونه ، وهي بالنهاية تستمرّ بدونه ، وآلاف من الليالي الحزينة لا أحد يعرف عنها شيئا ، حين ذات يوم وتحت وطأة الشخير الذي هطل من غرفة في الأعلى مطليّة بالزيت ومقوّسة جدرانها ؛ وقد مشى هرّ مغتاظ على حافة ذلك السياج وانكسر ظلّه ، انكسرت أيضا ظلال كثيرة لأناس لم تعرف أعدادهم ولا وجهاتهم ، نامت ظلالهم حيث رقد ذلك الظلّ الهائل الأسود الذي طمّ شوائبنا وعظام خطايانا ، لكن في الجهة الأخرى حيث يسقط ضوء الشمس ويداعب الجفون والأوراق والأسيجة ، وتهيم تلك الروح ومعادلها ، إن جاز التعبير ، ابتعد سطيفان وتوغّل في الإبتعاد . . التهمته دقائق الضوء كليّا ثمّ راح ، لم أره بعد ذلك ، سمعت صوته

مرّة ، وحين سألت طأطأت الرؤوس أن لم يكن هو! فحاولت أن أقنع نفسي أنّ ماسمعته وشوشة من نوع ما تواصلت في ذهني ، ربّما كان صوتي متماهيا في حزني عليه ، ومتشبّثا بيأس بفكرة وقوفه شاهدا على الظلمة بين كلمات تجهش ، تغصّ وتذرف الدموع ، تنبض فيها الحروف لكن أيّة حروف؟ عليّ أن أعثر عليها أوّلا ومن ثمّ أرتّبها لأعرف وتدلّني . تلك الطمّة شديدة السطوع في موضع ليس بالضرورة أن يكون محاذيا ، غير أن في الطريق المحاذي وبالقرب منها ، ومثل يد تحرّكت راحت ، تشير إلى موضع آخر ، ولم تكن يدا . . هكذا . . أحسست رغم أنّ الهواء أسفل تلك اليد ، التي لم تكن ، راح يخفق بقوّة وأنا أقرأ ما مكتوب على الحائط «الطريق لاروحة ولا ردّة» وشيئ ما لم أفهمه دفعني أن أمرّ ، تتخلله تكّات ساعة دقيقة ناعمة تتصاعد كأنّما هي موصولة إلى مكبّرة صوت راحت تقرع مثل ناقوس ، بتُّ تحت وقعه أحسّ كأنّ نصلا جعل يشرّح ذهني ويشجّ رأسي ، مخلّفا وجعا بين عينيّ ، أكان خوفا أم إنّه من جرّاء التدافع ، ذهنيّا ونفسيّا ، وقد وصلني صراخ رضيع إلى جانبه صرّة ثيابه وقد وضع للتوّ في ركن مثل ثمرة أسفل ساقيْ لبلابة هبطت من شبّاك في الأعلى ، وقد رُدّت عليه قطعة قماش بيضاء ، فيما ظلاّن لرجل وامرأة يغادرانه متواريين في الزقاق ، لتنحني بعد قليل امرأة أخرى على الطفل ، وهو ما يزال يصرخ ، بينما دفقة الهواء تتسلق سطح الطمّة وتلهث مثل راكض قدم من بعيد . . هو ذا يصل متأخرا والمرأة تسمّي باسم الرحمن وتلعن

سـيّئ الروح دمـيم القلب ، الذي رمى به على القـارعـة ، ثمّ تحـمله وتختفي هي الأخرى في انعطافة معتمة ، على يسارها يشهق بناء ذو شناشيل بباب خشبية ضيّقة من ردفتين ، يعلوهما حفر في الرخام أسفل قوس برز قليلا لخيول ملأ صهيلها الزقاق منذ مئة عام أو أكثر ، وهي تركض واقفة في حيطان بيت أهل العلاّمة سامي سعيد الأحمد ، يقابله بيت غني الصفار الذي سرقت منه ذات يوم (صفريّة) ، ووصلت الموصل فأعيدت إليه بعد أن تعرّف الصفّارون هناك على ضربة مطرقته فيها . ثم تضيّق شناشيل بيت كربل على تفريعة طويلة في الزقاق ، بينما في الجهة الأخرى أبعد قليلا يقع بيت الحاج أحمد ، ويروى أنّ شيوعيّا أحبّ ذات يوم إحدى بناته ثم عدل عن الزواج منها لأنّ أباها كان نازيّا!! ، يغسل الضوء بعد ذلك فسحة جانبيّة صار يطلق عليها عقد البوس أو شارع التقبيل أسوة بشارع الموكب(*) حيث كان الشعب يقف محتشداً على الجهتين وهو يهتف ويرسل القبلات عبر الأثير إلى الملك فيما الآلهة منشغلة في قبو المعبد تخلق مخصيّين وعقيمات من أجل الخدمة في القصور ، المهمّ ، في عقد البوس ذاك ضُبط رجل يقبّل طليقته التي تعنّت أهلها في رفضهم له فقامت القيامة يومها في المحلة ، ويتداعى الزقاق حتى تظهر تلّة رملية وكسر طابوق عتيق ثم جذعا نخل متقاطعان أكلتهما النار

(*) الشارع المؤدي إلى بوابة عشتار في بابل القديمة .

وتركتهما هشيما في وهدة وطيئة ، سوداء ، كانت يوما تسمّى (طرمة) أو باحة هي ما تبقّى من بيت الخبّازة ، قيل فيما قيل أن خرجت ابنتها ذات يوم قبيل آذان المغرب ولم ترجع وأشيع أنّ الجانّ أخذوها معهم إلى أرضهم ، بقيت أملاك العمّة وفيقة التي تزوّجت وتطلقت في السرّ دون أن تترك ابنا أو بنتا من بعدها ، وحصدت أملاكا في درب اللاروحة ولاردّة ذاك لا علم لدانٍ بها ولا لقاصٍ فطمرتها الطمّة ، وكشفت الكشوفات الرسميّة لاحقا عن عائديّتها حين خطّطت مديريّة الطرق والجسور لقطع منزل وأرض مسيّجة اتضح أنّهما ملك طابو للعمّة ؛ وقد شملهما توسيع الشارع الخلفي المحيط بهما ، والذي لم أقطع منه أكثر من ثلث كيس البيوض ، حيث راحت أصابعي تغوص وأرواح هنا وهناك حبيسة تنده . . ودفقة الهواء تتسلق الطمّة وتركض في ذلك الدرب ، وقد كبر إصراري على المرور فيه علّني أجد سطيفان الشاهد على ما بين كلمات ولو أنّ ثمة ما لم يقل بعد ، وشعرت أنّي أقترب وأنّه يراني ويحسّ بي ، فيتحسّب لسكناتي وحركاتي ويحتاط كي لا أصل ، في فنّ خالص الذكاء للعبة موحية تتطلب وقتا طويلا قد يتجاوز العمر ، بتُّ معه شديدة الحساسيّة وأتذمّر من إضاعة أيّة فرصة ، فلا أعدّ اللحظة اللاحقة جديدة بقدر ما أتوتّر وأنفعل كلما فكرت في هدر سابقتها .

في نهاية الفصل تكمل والدة سطيفان عمل حلوى اللوز ؛ وقد أغرقتها بخلطة الدرّاق التي يحبّها ، كنت معها في المطبخ أحرّك

بشكل عشوائي الملاعق والشوك على المائدة فسألتها : -هل يمكنني رؤيتــه؟

أخفضت المرأة رأسها فبدا عنقها نحيلا أبيض ؛ ثم رفعته بحرج باد وهي تحرّكه يمينا ويسارا وتقول :

- لا أظن .

وأقارن وأقارب وألصق قصاصات من أرشيف الجرائد ومصوّرات قديمة وحديثة ، وأكاد ألمحهُ من خلف نافذة غرفته المشرعة إذ يتشرّب جسده وعيناه بضوء تام . وقد حاصرته الظلمة فأختبأ في الضوء متماهيا معه .

ثانية ألقي نظرة على كيس البيوض قبالة المرآة ، وعلى مقربة تظهر أكياس أُخر متكئة على بعضها ، إلى بعضها ، متلاصقة متراصّة . ويا للهول! ترى . . كم من الوقت أحتاج لفكفكتها وجمع كسرها كي أتمكن من قراءتها؟

خمسون عاما . . . مئة!

ياإلهي! . .

سطيفان عهدي سعيد ، الذي لم يكن سعيدا طوال العهود البتة ، ماذا فعلت بي؟! حتى اللحظة لم أكتب حرفا واحدا .

عدتُ إلى الحلة كي أكتب شيئاً خاصًا على هامش قصّة حبّ قديمة طاردتني طويلاً ، مثلاً ، أو عادات أزهار ظلّيّة أحبّها وأقوم على تربيتها لكنّ شيئاً من ذلك لم يحصل . .

أنا الآن تحت ضوء السادسة عصراً على الجسر العتيق تماما . أمام عظمته يمتدّ السوق الذي سُقّف قديماً بقماش سميك ودعّم بجذوع النخيل . ثمّ حين تطوّر رفعوا عنه القماش ومدّوا فوقه الصفيح ، في ركن منه تقع الثلاثة أو الأربعة دكاكين التي تنازع عليها الورثة ، وقد آلت الملكيّة على غير وجه حقّ إلى غرباء وقطّعت الحواجز الكونكريتية السبل إليها منذ مفخخة أحالت المكان إلى بركة من الدم والوحل خاض فيها العشرات من الأهالي بحثاً عن بقايا أبناء ، كانوا هنا ، ذات سادسة وضوء .

العدد صفر

الى حياة الشاعر الراحل رعد عبد القادر

في الحقيقة لاأدري متى بالضبط توفيت الأختان قيسة ونهاية ؛ فتاريخ الوفاة غير واضح في المخطوطة . وكرامة منذ أكثر من مئة عام قبضة من الطين مجفّفة وكلمات لمّت المكان وراءها ، ولعلها أخذت القفّتين معها ، فقد وصلت البئر إلى الحجرة ، ومذْ ذاك وأنا أرقبها تقرضها مثل فأر حتى جاءت على آخرها وانقرضت تماما . أصبح المبنى فراغيّا يتلاطم فيه حفيفه بالأصوات ، بالأطياف ، متشبّعا برائحة الرمل الرطب الخانقة ، وبدا كلّ شيئ عائما ، أيّ عائم هذا؟ إنّهما مقلتاي اللتان تدوران في محجريهما . أيّ (مقلتاي)؟ حتى أنا لم أكن هناك!! ، الـ كانت هذه مفخّخة وضعها سطيفان في مرحلة من مراحل قبوه ؛ لذا قررت أن أعود إلى الفقرة التي سبقت وصول البئر إلى الحجرة ؛ فذي أساسات الحيطان متفطّرة ، والدعاسيق والخنافس والعناكب تتعلق في شقوقها المعتمة ، حيث تمدّد عهدي ذات يوم حين كان طفلا يلمّها أسفل السرير . ثمّ تظهر القفتان وقد امتلأتا بعظام تتنفس وقطن أبيض له عيون تترجرج في محاجرها ، وكرامة تناول بيدها ملعقة حليب لهذه وأخرى لتلك ، فيما حفيف خافت يصدر متقطعا من كومة العظام ،

والقطن يشبه الأنين هو لقيسة ونهاية ، يتابع يدا شفافة تخرج من تحت القميص مثل طائر يحلق وطيئا جعل يتنقّل بين القفّتين ، ثمّ يندسّ في القطن تحت مجرى النفس تماما ، وقد ألفت كرامة رفيفه وهي تبصر الحليب يسيل خطّين أبيضين من ثغرين هما شقّان مظلمان من بين العظام ، فيسكت الأنين ويرتفع بدلا منه حفيف البئر ، وتقترب فوّهته فتمسح المرأة بيديها على وجهها وهي تتلو الفاتحة ، ثمّ تحملهما إلى باحة الحوش عند شجيرة آس غرست للتوّ ، هناك جعلت تغسلهما وترشّ عليهما ماء زمزم ، الذي كانت الأختان توصيان به الحجّاج كلّ سنة ، وقد احتفظتا به مع كفنين في درجيهما . فلفّت كلاّ منهما بكفن على حدة وأعادتهما إلى القفّتين مثل مولودين حديثي الولادة . وقيل أن قد ظهرت أسنان لبنيّة لقيسة . . وتقول كرامة إنّها خثارات اللبن ظلت عالقة في لثّتها .

وراح آل هبوب يهبطون الدرج بهما إلى سرداب عميق ، وحين رأيت الوجوه فكرتُ للوهلة الأولى بأقنعتها ، حذاءها تماما ظهرت الجهات متناثرة لعلّه إله البحر ، بواسيدون ، استيقظ ثانية ونثرها في العباب ، لكن أوديسوس في إيثاكا . . . والصفر يدخل إلى الموقع أحفورا معدنيّا تتقعّر فيه غابة ، راح يتدحرج محاكيا الظلام في سواده والضياء في بياضه ، أسطوله سلسلة جهات لا ترسو لا في إيثاكا ولا في سواها . هناك أيضا برهة خالية ، برهة منهارة أوجزت يوم اثنين بعيد مرّ واصل نزوله متشعّبا في الجذور التي افترعت وتداخلت فيما

بينها ، كانت خزانته مفتوحة وخزانة الصفر أيضا ، فجلست بانتظار الصديق الذي لن يأتي لا في تلك الاثنين ولافي أيّة اثنين أخرى! . . وثمّة نداء يتخلل ظلالا . . ظلال تلفّ في ثنياتها الستائر والشبابيك وتحملها معها إذ ترتفع أرواح ترتطم بالسقف ثم تعاود الهبوط إلى الأسفل ، معلقة في إطارات أنيقة على الحائط لمفكرين وشعراء موتى . . ما هذا الفأل؟! قلت في نفسي ، يا إلهي هل ضاقت الأرض؟ أما كان من الأنسب إنشاء متحف خاصّ بها؟

وأجفل أنا التي يتوجّس أهلي وأصدقائي من أحلامي . كانت خزانة الاثنين مفتوحة ، وخزانة الصفر أيضا أسمع فيها جدالا عن مجلة لم تر النور ، يحكى إنّها تقطف أرواح العاملين بها فأغالب تلك الريبة ، ذلك الأحساس المفاجئ الذي داهم قلبي وأرعشه طائرا صموتا رفض أن يحلق وطيئا وهو يمسك بالـ . . (اليد المقطوعة الأغصان)(*) في غابة راحت تتقعّر عميقا في إثنين الصفر وصفر الاثنين . . .

أعترف وأقرّ أنّي أضفت الحاشية إلى المخطوطة ، ودسستُ المخطوطة في التراب ، ونثرت من فوقها الجهات كي تخطئها عيون المهرّبين وبوصلات الأدلاّء .

نضال القاضي

بغداد-البرازيل - ٢٠٠٨

(*) للشاعر الراحل في واحدة من قصائده .

نضال القاضي
شاعرة وقاصّة عراقية

صدرلها:

- مكان مـألوف لديّ (قصص) ، الحـائزة على المرتبـة الثـالثـة في مسابقة أندية الفتيات في الشارقة عام ١٩٩٩/دار المسار .
- عصفورة أدوم (قصص) ٢٠٠١ عن دار الحرية/بغداد .
- ودائع المعوّل عليه(شعر) ٢٠٠١/ بغداد .

المخطوطات تحت الطبع:

- عائلة البيكونيا (شعر) .
- بينالي عواء وبسكويت (شعر) .
- من يأخذ النار إلى حجرتها (شعر) .

ترجمة النصّ الكامل عن الإنكليزية للمجموعة الشعرية (قلب المنجمد الشمالي) للشاعرة الكندية كريتيل إيرلش .